روز اليوسف

أساطير وفولكلور العالم العربي

شوقى عبد الحكيم

أساطير وفولكلور العالم العربى

الجزء الاول

شوقى عبد الحكيم

اهـــــداء

الى صــــديقى وشقيقى المرحوم
المهندس نبيل عبد الحكيم هلال ٠
الى علمك وقدراتك العقلية التى
كانت ، أهدى هذا الكتاب البسيط ٠

شوقى عبد الحكيم

مقـــــدمة

اكتملت لى فكرة هـذا الكتاب البسيط عن فولكلور واساطير الشعوب العربية او السامية بعد ان امضيت قرابة ربع القرن الاخير ، فى جمع وتدوين المواد الفولكلورية الشفاهية من سير وملاحم وحواديت وحكـــايات وفوازير او حنور ونكت ... الخ .

وكان على ان اواصل تصنيفها بحسب المناهج المتعارف عليها فى التصنيف بالنسبة لهذا العلم الوليد ، ثم بعد ذلك دراستها او محـــاولة التعرف على اصولها ومنابتها الاولى ، على اعتبار ان المواد الفولكلورية التى ترد على شفاه ملايين الناس وممارساتهم اليومية فى أى بقعـــة من العالم ، تصبح بلا قيمة مالم يتحدد منبتها خلال الزمان والمكان .

وهو ذلك المنهج الذى سبق اليه الكثير من الكتاب الكلاسيكيين العرب ـ فيما يتصـــل بالعنعنة والتوثيق ـ مثـل الطبرى والمقريزى وابن الكلبى ، ومحمد بن اسحاق ، ووهب ابن منبه ، وابن النديم ، والجاحظ وغيرهم .

واكتمل هذا المنهج مع نهاية القرن الماضى فعـرف بالمنهج الجغـرافى التـاريخى للبحث والتنقيب الفولكلورى ، واصبح فيما بعد احـد الملامح الكبرى للمدرسة الفنلندية التى تتميز عاصمتها هلسنكى اليوم بسبق الريادة الدولية لما قطعته فى مجال دراسة الفولكلور والانسانيات عامة ، حتى ليطلق اليوم على هلســـنكى بحق « كعبة الفولكلور فى العالم » .

وبتحديد اكثر ينسب هذا المنهج الذى يعرف بمنهج « فنش » الى الشعب الفنلندى ، لاب وابنه ، هما يوليوس وكارل كرون : ١٨٨٠ .

وهما على وجه التقريب والمفارقة تتشـــابه ظاهرتهما ـ كاب وابن ـ ينجزان منهجا ، مع اب وابن عرب سالفين ، من كبار الميتولوجيين رواد الميثولوجيا العرب ، هما هشام وابنـه محمـــد الكلبى اللذين عاشـــا فى القرن الثالث الهجرى ، وأنجزا مؤلفهما الممتـــاز المعروف

ب « الاصنام » عن أصنام الكعبة ، فيما قبل الاسلام ، وعددها ٣٦٠ صنما .

فما أن بدأت تحقيق موادى التى جمعتها من شفاه فلاحى مصر على طول قرى مصر الوسطى فى الفيوم والجيزة وبنى سويف والمنيا ، حتى هالنى ان معظم — ان لم يكن كل — هذه المواد بمكن ف لا تعقبها — خلال الزمان والمكان — أى على كلا المستويين التاريخى والجغرافى . وردها بالتالى لمنابتها وأصولها الاولى .

وان معظم — ان لم يكن كل — فولكلور الشعب المصرى، ينتمى فى مجمله لتراث البلدان العربية المتاخمة والمجاورة . أى أن هناك حقيقة عربية تتمثل أول ما تتمثل فى هذا التراث المتجانس الواحد ، الذى يلتقى تحت لوائه المصرى القديم ، جنبا الى جنب مع السورى — أو الاشورى — واليمنى القحطانى مع العربى العدنانى فى السعودية .

بل انه وبنفس هذا المنهج يتلقانا العالم من حولنا . على خرائط واطالس الفولكلور العالمية. فلا نفرد هذه الاطالس دراسة مصر بمعزل عن العراق . ولا الشمال الافريقى بمعزل عن دول الخليج وهكذا .

فلقد اصبحت حقيقة لاتقبل الجدل ، يقول

بها عديد من علماء وشراح العالم القديم ، وهو انه لكي نتفهم ونستكشف دور الحضارة المصرية الفرعونية بفولكلورهاواساطيرها ، على الوجه الصحيح ، يجب ان نتسلسل بادئين بدراسة حضـــارة وموروثات الشرق القـديم عامة ، والشرق الادنى بشـــكل أخص — أو مجموعة الشعوب الســامية فى اطار حضـــارة البحر الابيض ٠

ويتحمس لهذا الرأى كثير من العلماء ، منهم برستد وجوردن تشايلد وارنولد توينبى ، والعالم الاثرى المصرى احمد فخرى ، والعالــم العراقى الكبير ٠ جواد حسنى «١» ٠

ففى الوقت الذى يجنح فيه توينبى الى عدم جدوى البحث عن بقايا مصر القديمةخلال ثنايا مصر المعاصرة ، يرى كل من د ٠ برســتد ، و د٠ أحمـــد فخرى ، انه من المحتم معرفة حضارة الشرق القديم مجتمعة ، ثم الافاضــة أو التخصص فى أى حضارة محددة من هــذه الحضارات على حـدة مثل الحضارة المصرية او القحطانية أو العبرية أو الكنعانية الفينيقيــة وهكذا ٠

(١) انتصار الحضارة — برستد ترجمة أحمدفخرى ص ٢ ٠

وهو ما حاولت ـ جاهدا ـ الاخذ به والسير على هداه ، فى محاولتى الدراسـية هـذه ، المستهدفة تعرفملامح وموروثات شرقنا القديم او مجموعة الاقوام السامية ، بقصد تحديد دور ومكان تراثنا المصرى الفولكلورى منها •

ويمكن الجزم بأن الاخطاء او المغالطـات او الغموض ، الذى قد ينتاب أى حضـارة مفردة منها يؤثر فى مجموع حضـارات الشرق الأدنى القديم عامة •

ومعنى هذا ان ضياع المدونات التاريخيـة لبعض هذه الحضارات المتاخمة يؤثر على بعضها الآخر ، اى أن غموض وعدم وضوح الحضارات القبلية القديمة لشبه الجزيرة العربية بقسميها الشمالى الاسماعيلى العدنانى الرعوى ، فى مكة والحجاز ونجد ، والجنوبى القحطانى او اليقطانى فى اليمن والجنوب العربى ، يؤثر مباشرة فى الحضارة المصرية القديمة المجاورة تأثيرا مباشرا، وكذا يؤثر فى حضارات الشام وفلسطين ومابين النهرين وهكذا •

خلاصة القول انه قد تعارف علماءالفولكلور والانسانيات ، على النظر ودراسة عالمنا العربى كمنطقة متجانسة التراث ، تعرف بمنطقـة الفولكورو الاساطير السامية ، والسامية هنـا تعريف لغوى ـ اثنولوجى ـ اكثر منه تعريف

جنسى • بمعنى انه يتمثل فى الاصول اللغوية المتجانسة او الواحدة التى تصل روافدهـــا المبكرة الىعشرات ومئات اللهجات،والتىاكتملت اليوم فى العربية والعبرية وبعض السريانية •

فلقد اتفق علماء الاساطير والفولكلور عــلى تقسيم قارة آسيا الى خمس مناطق متجانســة التراث ، اقربهــا الينا منطقتــان هما : منطقــة الفولكلور والاســاطير الآرية وتضم الهنــد وفارس ــ ايران • ومنطقة الفولكلور والاساطير السامية ، وهى تشمل الشرق الادنى القديم ، أو الشرق الاوســـط المعاصر ، أو مجموعة الشعوب التى انتهت اليها وتبلورت اللغات واللهجات السامية ، التى اكتملت اليــوم فى العربية والعبرية •

وطبعا كان لزاما على التعرض بالدراسة لكلا التراثين العربى والعبرى بالاضافة الى المؤثرات الآرية للهنـــد واواسط آســـيا وفارس • وبالاضافة ايضا للتراثين الهلينى والرومانى ، نظرا لدورهما المؤثر فى مصر والعالم العـــربى عامة ، ولوجود امبراطوريتهما وبالتالىمؤثراتهما التراثية والحضارية قرابة ۱۰۰۰ عام •

وعن هذا الطريق يمكن معرفة تراثنا المصرى واعادة تفهمه . ونفس الشيء بالنسبة لتراث الشعب الليبى ، والعراقى وهكذا .

اى ان المدخل العلمى للوقوف على أدق خصائص الملامح المحلية لأى شعب من شعوبنا العربية ، لن يكتمل الا فى اطار المعرفة الشاملة لخصائص المنطقة ككل متجانس ، اقرب الى التوحد منه الى الاختلاف والتناقض .

فمعظم السير والملاحم والقصص الشعرية الطقوسيةالتى يجمعها جامع ودارس الفلولكلور فى مصر ، يمكن ان يعثر على متنوعاتها زميله التونسى والعراقى والليبى فى بلاده مثل : سيف بن ذى يزن ، وسيرة الهلالية أو بنى هلال ، وسير وملاحم التباعنة ـ جمع تبع ـ مثل الزير سالم ، وعزيزة ديونس ، ويوسف وزليخة ، وسارة وهاجر ، والقميص ـ قميص النبى محمد ـ وزرقاء اليمامة ، وبرافش ، وعلى الزيبق ، والاميرة ذات الهمة .

وكذا كل ما يتناقل شفاهيا ، عن قصص وحكايات الخلق والسقوط والطوفان واغتيال الأخ لأخيه ، وكل ما يتصل بولادة وتربية الانبياء الموعودين : ابراهيم، ويوسف،وموسى، وداود ، وادريس ، ويونس ، والخضر ،

وشعيب . أى يمـكن الحصول على مترادفات وتنويعات هـذه الاساطير والملاحم والقصص والبالاد والخرافات على طول العالم العربى .

كما أن من المفيد معرفة أن معظم هذه السير والملاحم والقصص انطقوسـية هى فى حقيقتها انسلاء احداث تاريخية ومناسبات أريد بها الحفظ والتذكير ، كاعيـاد العيد الكبير والصـغير وعاشوراء ، والجمعة الحزينة ، وبئر زمزم وشم النسيم .

وعديد من المناسبات التقويمية .

فهذه الملاحم والاناشيد الروائية ينظر اليهـا كمدونات تاريخية ،«وهكذا دخلت فى المؤرخات الاولى عناصر الملحمة والقصـة الشـعبية » كما يقول عالم ما قبـل التاريخ ، جـوردن تشـايلد (١) . « بل ان الرواية الادبيـة التقليدية العربية ، اسـتفادت من الرواية الدينيـة والتاريخيـة ، وما اصـطنعته من ضـوابط (٢) » . كما يقـول الدكتـور

---

(١) التاريخ . جوردن تشايلد ـ ترجمـة عدلى برسوم ص ٥٣ .

(٢) الهلالية فى التاريخ والادب الشعبى : د. عبد الحميد يونس ص ٨٢ .

عبد الحميد يونس .

ولعل المشكلة الرئيسية التي واجهتني في محاولة عمل المامة سريعة لتاريخ منطقتنا هذه التي نعيش احداثها العنيفة المتجددة ، تبلورت في غياب وجود تتابع تاريخي واضح الى حد ، اوهو متواز مع تاريخ الشعب المصري او العراقي القديم .

من ذلك افتقاد شبه الجزيرة العربية لتاريخها المبكر السابق على مجيء الاسلام ، وهي الفترة التي يطلق عليها اعتباطا بالجاهلية ، وان كانت هذه الجاهلية تزدهر بالعديد من النشاطات الابداعية الحضارية المرصودة اركيولوجيا او علميا ، تصل الى قرابة ٤ آلاف عام قبل الميلاد . وللجنوب العربي في اليمن ودول الخليج حضارته وتراثه الاسطوري والعقلي - الموغل في القدم والعراقة .

وليكن واضحا انني لا اكتب تاريخا بقدر ما انا ابحث عنه محاولا استخدامه لارساء ضوابط ومحكات تراثية او حضارية على قوائمها يمكن ارساء معالم تتابع تراثي ، عصرا اثر عصر او جيلا اثر جيل . ان شابه شيء فهو اقرب الى تتابع الصخور الرسوبية بعضها فوق بعض .

فكما هو مفهوم يصبح الفولكلور بلا قيمة تذكر ، ما لم يتحدد تاريخه ومنبته الجغرافى ، وهجراته ، وما طرا عليه من تغييرات خلال الزمان والمكان .

وعلى هذا أدت المناهج البنائية ، التى موجزها تكاتف مجموعة علوم ذات أهداف ومستويات استراتيجية ، فى الكشف عن ظاهرة أو مجموعة ظواهر .

وبهذا أصبح لا غناء لعلمى الاساطير والفولكلور عن علمى ما قبل التاريخ ، والتاريخ .

كما اصبح فى مقدور علم الفولكلور اعادة انارة وتوضيح المدونات التاريخية واعادة ضبطها وتحريكها من اقدم مواقعها .

فما من اضافة كشفية اركيولوجية

او حفرية ، لم تسهم بشكل ايجابى فى اعادة توضيح وتكامل جزئيات هذا التراث الهائل لشرقنا الاوسط ، الذى وهب العالم اديانه الثلاث الكبرى : اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام .

وما من اضافة مدونة كانت او شفاهية ، لم

يترتب عليها دوام الهدم المستهدف - أصلا - لتوالى البناء واستقامته ٠

وعلى هذا فالعلاقة وثيقة بين التاريخ وبين التراث الاسطورى والفولكلورى ، او بين الاثنوجرافيا وبين الانثروبولوجيا الاجتماعية ٠

ويمكن اعتبار الدراسات الفولكلورية - محتوية - أو متضمنة الاساطير ، احد المركبات الهامة اليوم ، فى اعادة بناء تاريخ الجسد الحضارى لأى شعب أو مجموعة من الشعوب ٠

ففى مقدور مثل هذه الدراسات الجديدة الشابة ، تلك التى تستهدف أول ما تستهدف ارساء اكبر قدر من التسامح القائم على الفهم ، كما يقول احد روادها الاوائل - سير جيمس فريزر - فى نهاية موسوعته المعروفة بالغصن الذهبى البالغة ١٤ مجلدا ٠

فى مقدور الدراسات الموضوعية البعيدة عن محاولات نطح جدران التعصب ، ان تعيد ارساء وتشكيل معالم تاريخ جلى واضح لحضارات شرقنا العربى ، الموغلة فى العراقة ٠

على ان هـذا التاريخ الثقافى او الفكرى سيكون مرتبطا أشد الارتباط وأوثقه بحركة جماهير شعوب منطقتنا العربية أو السامية ، وصراعاتها المستهدفة للتوحد والتجانس ٠

ومفهـــوم طبعـــا ان مثـل هـــذه العلوم الانسانية ، قطعت مرحلة كبيرة من الرصــــد والجمع والتصنيف على مستوى العالم اجمع ، وتوصـــلت الى نتائج علميـــة وصـــلت الى حد اســــتخدام الاجهزة التكنولوجية ، من عقول اليكترونية وآلات حاسبة ،ومناهج رياضية • فاصــــبح هنـــاك اليوم عقـــول اليكترونية متخصــصة : فى افرع الفولكلور والاســاطير المختلفـة ، عقـل الـكترونى متخصـــص فى حكايات الحيــــوان ، وآخر للزواحف ، وثالث لخـرافات الجـــان ، ورابع للحشرات والهـوام والنبات وهكذا ، وهو ما ينجز بتوســـع فى دول شمال اوربا ، وفرنسا وإيرلندا •

ولعل آخر تطورات الأخذ بالمناهج الرياضية والتكنولوجية ، هو التوصــــل الى دراســـة وتصـــنيف التوراة والتلمودين ، البابلى ، والأورشليمى ، وهو ما توســـعت فيهالجامعة العبرية فى القدس ، بالاشتراك مع يهود مدينة نيويورك •

وما احوجنا اليوم الى الاســتفادة من حركات ـ عقلنة ـ التراث التى تجرى من حولنا بهدف مضاعفة التنمية ، من مادية وبشرية وعقلية •

كما أنه ما احوجنا ـ هنا فى مصر ـ الى قيادة حركة تنوير حقيقية ذات جذور ، تبعث باشعاعاتها على طول منطقتنا العربيـة وتسهم بشكل علمى حقيقى فى شعارات اعادة بنـاء الطاقات العقلية للانسـان المصرى والعربى ، استجابة لشعارات الدولة العلمانية ، واعادة بناء الانسـان الاشتراكى المصرى الصاعد .

كما أن فى مقدور هذه الدراسات ، الادلاء بدلوها الايجابى فى ايجاد الحـلول العادلة لمشكلة الشرق الاوسط ، خاصة وكل الاطراف مقبلة اليوم على مرحـلة انهاء حالة الحرب ، واطلاق طاقات الجهود السياسية ، المتضمـنة بالضرورة للجهود الفـكرية من تاريخيـة واسطورية وعقائدية .

وكم سيكون مفجعا أن تكتشف الاجيـال القادمة سـواء هنـا أو فى اسرائيل ، مدى سيطرة الخرافات على العـلم ، ومـدى تعنت الاسـاطير وجبروتها فى الدفع والتحكم فى حركة التاريخ كما يقول فريزر .

شوقى عبد الحكيم

الفصـــل الاول

مشـــاكل التراث العربى الســـامى

من المؤكد ، أن عديدا من المشـــاكل تعترض الباحث فى تتبع أصول اساطير وفولكلور هـــذه المنطقة التى نتنفس أحداثها ، وهى منطقة الشرق الادنى أو الاوســط ، خـــلال الزمان والمكان ، ومرجع هذه المشاكل عدة عوامل أو صعوبات ، أولها قلة الجهود التى بذلت فى هذا الحقل البكر ، سواء منها مايتصل بالبحث فى المصادر الاولى أو المصادر الأم من وثائق ومدونات حفرية ونصيهأى ما أوضحته الكشوف الحفرية أو المسمارية للآثار العراقية وحضـاراتها المتعاقبة ، من ســـومرية ـ لا سامية ـ الى البابلية والاكادية والآشورية ٠ وما أوضـحته الحضـــارات القبائلية فى الجزيرة العربيـــة ، بقسميها الشـــمالى العدنانى البدوى ـ فى السعودية اليـــوم ـ والجنوبية القحطانية الحميرية الزراعية ، فى اليمن والجنوب العربى ٠

وما أوضحته الكشـــوف الحفرية ، للحضـــارة الكنعانيـــة الفينيقية وطليعتها البحرية فى لبنـــان وفلسطين ، بالاضافة الى ما ضاع وانقرض ، من مدونات نصية ـ غير حفرية ـ التى وردت فىشكل نصـــوص مدونة فى الكتابات المبـكرة فى كتب الكلدانيين والآراميين واليهود والسريان والانباط والحرانيين والتى منهـا انحدرت فرق ونحل الملل المنقرضـــة مثــل الدهرية والصـــابئة والثنوية

والديصانية والمجوسية والنشابة ، والمئات غيرهم، هذا بالاضافة الى المئات من كتب ومؤلفات العلماء والكتــاب والرواة من العرب وغير العرب ، مثل وهب بن منبــه ، والالوسي ، وعبيــــد بن شرية الجرهمي ، وكعب الاحبار ، ومحمد بن اسحاق ، والدميرى ، والازرقى ، والبلخى ، والقزوينى ، والهمدانى ، والســـاجستانى ، وابن وحشـــية الكلدانى ، والطبرى ، وابن قتيبة ، وابن النديم ، وابن كمونة .. وهكذا

وكتابات هؤلاء أصبحت اليوم مصادر شديدة الاهمية بالنسبة لدارسي حضارات وأساطير الشرق الادنى القديم تجيء أهميتها مباشرة بعد المدونات التاريخية الاركيولوجيه .

وعلى ســـبيل المثال : فقد كان اكتشاف الجزء الثامن من كتاب الاكليل للعالم العربى الكبـــير محمــــد الحســن بن يعقوب بن يوسف بن داود المشهور بالهمدانى والذى يصف فيه قلاع اليمن القديمة وقصـــــورها وجانبا كبيرا من حياتهـــا الاجتماعية ومعتقداتها وهـــو الكتاب الذى أجلى الكثير من الغموض والذى « يتضمن محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصـــورها ، ومراثى حمير والقوريات » . وكذلك اكتشاف الجزء العاشر من نفس الكتــاب الذى يتحدث فيـــه الهمدانى عن قبائل اليمن ومملكة سبأ وحمـير التى دان لهـا

العالم أجمع منذ بداية الالف الثالثة قبل ميلاد المسيح ٠

هذا رغم أن ثمانية أجزاء كاملة فقدت تماما من هذا المدون النادر ، من بينها الجزء السابع الذى تناول فيه الهمداني الاساطير والخوارق ـ والحكايات المستحيلة ـ لليمن الغابرة ، وكذلك جزءه الثالث عن « فضائل قحطان » ٠

وهذا يقودنا للحديث عما فقد من مدونات التراث الحضارى للعالم العربى النادرة ، من كتب « الاشارة فى السحر » و « أسرار الكواكب » و « الحياة والموت » و « القرابين » و « الاصنام » و « كتاب هرمس فى النشر والتعاويذ والعزائم » و « نوادر جحا » و « نوادر ابن أحمر » و « كتاب الفال لاهل فارس » و « حديث ابن الدكانى » وأغلب مؤلفات المدائنى ، وابن وحشية الكلدانى ـ وهو من ولد سنحاريب ملك آشور ـ وكتبه فى السحر ، ومذاهب النبط أو الآنباط ومذاهب الكلدانيين ، وكذلك كتب على بن زين النصرانى « فى الآداب والامثال على مذاهب الفرس والروم والعرب » ٠ كما فقدت أغلب كتب ابن طالوت وصالح بن عبد القدوس وعلى بن ثابت وأبو عيسى الوراق وسهل بن هارون وعلى ابن داود ٠ وشيلى صاحب مذهب الشيليين ـ وتلميذه بابك بن بهرام

وابن أسورى أو أشورى وغيرهم ·

بل ان حزائن كتب ومكتبات بكاملها قد ضاعت وانقرضت تماما ، وكان يمكن لهذه الكتب والمدونات القاء بعض الضوء ، على ما انقطع من أحقاب تاريخية بكاملها أصبحت لدى الدارس الحديث مظلمة مسدودة قاحلة ·

منها على سبيل المثال ، أخبار وأساطير القبائل العربية التي يرجعها البعض الى ما قبل الالف الثالثة قبل الميلاد ، والتى بيدت دون أثر ولم تخلف ما يدل على تراثها وملمحها ، مثل قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم وغيرهم من القبائل التي محيت من الوجود وانتهت بكامل أسمائها وأنسابها ، وتعارف عليها باسم العرب البائدة ، أو الغابرة ، أو العاربة ·

وعلى هذا تعارف المؤرخون والنساب ، على بقايا القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية باسم العرب « الباقية » أو المتعربة ، أى عرب الجاهلية الأولى والثانية ·

وقسموهم الى قسمين ، شماليين أو عدنانيين أو اسماعيليين ــ في نجد والحجاز ــ وجنوبيين هم القحطانيون ، نسبة الى قحطان ــ أبو اليمن ــ وهو قحطان بن عابر أو النبى هود أبو الملوك اليمنيين ملوك دول سبأ وحمير ومعين ، والدولة الاخيرة

امتد سلطانها حتى شواطىء البحر الابيض المتوسط والخليج الفارسي وبحر العرب الى جانب استيلائها على جميع مناطق شبه الجزيرة العربية٠

يقول ابن خلدون فى تاريخه عن ملوك حمير « كانت الدولة والملك في بنى قحطان متصلة من يعرب ابن قحطان ، وكان من أعاظم ملوك اليمن ، ثم تسلسل الملك الى سبأ بن يشجب بن يعرب ، ثم فى دولة كهلان وحمير ، ثم أولادهما » ٠

وقبل التعرض بتفصيل ، عن ممالك سبأ وحمير ، وما خلفته حضارتهما فى تراثنا الشفهى المعاش اليوم ، نعود الى استكمال ما بدأناه عن مشاكل الدراسة شبه الدقيقة لتراث هذه الشعوب السامية التى اتفق علماء اللغات ـ الاثنولوجى ـ على تقسيمها الى ثلاثة أقسام :

يعرف أولها بالقسم الشرقى أو البابلى الآشورى فى العراق ٠

والثانى يعرف بالقسم الغربى أو الكنعانى أو الارامى فى الشام وفلسطين ٠

ويعرف الثالث بالقسم الجنوبى أو الغربى فى الحجاز واليمن ٠

وقد اتفق اللغويون والمستشرقون ، نظرا

لظروف جغرافية واجتماعية وتطور طبيعي على اعادة تقسيم المجموعة السامية الى ثلاثة أقسام لغوية هي :

القسم الشرقي ولغاته ولهجاته البابلية والآشورية والكلدانية والارامية ٠

القسم الغربي ولغاته ولهجاته ، الكنعانية والاخلامية والفينيقية والبونية والآرامية والعبرية والسريانية والتدمرية والنبطية والموآبية والامورية ٠

أما القسم الجنوبي ، فتنقسم لغاته الى لغتين :
أولاهما العربية ولهجاتها هي ، العربية القديمة أو الآرامية ـ والقحطانية والحميرية والمعينية والسبئية ٠

وثانيتهما الحبشية أو الجعزية ، وهي لهجة حضرموت القديمة التي نشرها اليمنيون في الحبشة منذ منتصف السنوات الالف قبل الميلاد حين غزت جبال الحبشة جموع من حضرموت ، واستوطنت فيها ، ونشرت اللغة الجعزية التي ما زالت سارية ، يمكن تلمسها في بقايا الطقوس الدينية للكنيسة الاثيوبية ، بعد أن حلت محلها اللهجات التيجرية والتيجرانية والامهرية والهررية ٠

وتندرج كل هـــذه اللغات واللهجات ــ التى اندثر مجملها ولـم يتبق منها ســوى العربيـــة والعبرية تحت منطقة أساطير وفولكلور ما يعـرف بالشعوب السامية أو العربيـــة بحسب ما يراه سبرنجر « من أن جميع الساميين عرب » ٠

واذا ما تناولنا القسم الشرقى للاقوام السامية أو العربية فيالعراق وما بين نهرى دجلة والفرات عامة، وهي الاقوام أو الحضارات الاكادية والبابلية والآشورية ، التى توارثت حضـارة السـومريين وأساطيرهم والهتهم ومعتقداتهم ، وترجـــع أولى بدايات ممالك هؤلاء الساميين الى منتصف القرن الرابع والعشرين قبلالميلاد من حوالى٢٣٥٠ ق٠م٠

وعن هذا القسم الشرقى السامى ، أى البابلى سرى تراث الاقوام الســومرية الاكادية المندثرة ــ مثلها فى ذلك مثل العرب البائدة ــ الى بقيـة الاقوام الســامية الاخرى ، من امورية وكنعانية وآرامية وعبرانية وعربية فى ربوع الشام وشبه جزيرة العرب بقسميها الجنوبى القحطـــانى فى اليمن ٠ والشمالى العدنانى فى الحجاز ونجد ، الى جانب بقية الأقوام السامية المتأخرة فى الشـــام وما بين النهرين ، مثل قبائل كهلان المتفرعـه من صـــلب سبأبن يشـــجب بن يعرب بن قحطـان

أبو اليمن ـ أول من تكلم العربية ـ والذى منه جاء الحميريون التباعنة ملوك اليمن ، وآخر ملوكهم كان الملك سيف بن ذى يزن الحميرى ، بطل السيرة والملحمة الشفاهية المعروفة ٠

ومن كهلان ـ شقيق حمير ـ جاءت اشهر بطونها قبائل الازد ـ الذين تفرقوا عقب خراب سدود اليمن وكان اهمها سد مأرب ، وسد الخانق بصعدة الذى بنى فى عهد الملك سيف بن ذى يزن ، وسد ريعان « لابن ذى مازن » وسد سنان وعنس وجيرة ، وسدود يحصب ، التى يقول عنها الهمدانى « وهى على ماكنت اسمع ثلاثون سدا ، وقيل ثمانون ، ومنها سدود سحر ، وذى سمال ، وذى رعين ولحج ، ومفاضة ، وهران ، والشبعانى ، والمنهاد . ولطاف » ٠٠٠ الخ ٠

ومن قبائل كهلان ، جاءت قبائل الغساسنة ملوك الشام ، وايضا قبائل الأوس والخزرج الذين هاجروا من اليمن ونزلو المدينة ومنهم جاءت قبائل خزاعة ـ ملوك الظهران الذين نزلو الظهران واصبحوا ملوكها ٠

كما ان من قبائل كهلان جاءت همدان ، ومن اصلاب الهمدانيين ، انحدرت قبائل كندة وطىء وخثعم وبجلة ولخم وجذام ، ونصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة ٠

ويقال ان النخل أو التمر ، كان من اعظم العوامل التي اجتذبت هؤلاء الساميين الرعويين المعدمين من شبه الجزيرة العربية الى أرض بابل ، وبناء على ماروواه المؤرخ سترابون الذى ذكر ان الفارسيين قالوا فى النخيل شعرا « عد فيه نحو ثلثمائة وستين طريقة مختلفة لاستخدامها والانتفاع بها » ٠

ويبدو أن ثروات واخصاب دلتا الفرات لعبت دورها الجاذب لتلك القبائل البدوية غير المتحضرة٠ يقول هردوت « على ان بابل كانت كمصر ، كثيرة الترع والقنوات ، ومنها ماكان كافيا لتسيير السفن المتجهة جنوبا من الفرات الى دجلة حيث تقع « نينوى » الشهيرة بخصبها ووفرة حنطتها ٠ ولشدة الخصب كان عرض ورقة النبات يبلغ اربعة قراريط » ٠

ولقد اتصلت الجزيرة العربية منذ فترات مبكرة بما يجاورها من حضارات زراعية أو نهرية ، مثل الحضارات البابلية والفارسية وحضارات جزر البحر الايجى ثم الرومان ، واخذوا عنهم الكثير من تراثهم الحضارى والعقائدى ٠ ولعب قيام مملكتى الحيرة والغساسنة على اطراف الدولتين الفارسية والرومانية اثره بالنسبة لهاتين الحضارتين

المتمايزتين ، أى حضارة النهر والزرع والاستقرار، وحضارة البدو والوبر والاغارة واللااستقرار ٠
ولقد تبدى هذا التمايز أو التناقض بين الحضر والبداوة، فى كــلا التراثين المدون والشــفاهى ، وكذلك تبدى بشكل متواصل فىالحياة الاجتماعية للشرق الادنى عامة ، مثـــل الصراع بين العرب العدنانيين أو المعديين ســكان الحجاز والقحطانيين سكان اليمن ٠

فتتبدى اسباب الصراع بين الحضارة والبداوه ، فى الاغارات المتوالية على موارد المياه ، وتمثل هذا الصراع اكثر ـ فيما بعد ـ بين عرب أهل المدينة من الأوس والخزرج ، وهم يمنيون واهـــل مكة العدنانيون ، ويدور الصراع بين ابناء الاب الواحد مثل صراع بنى هاشـــم وبنى أمية بمكة ، وعبس وذبيان من قيس ، وبكر وتغلب منربيعه ٠٠ الخ٠
ولقد ايدت بعض الكشوف الحفرية المتأخـــرة ، ما جاءت به المصـــــادر العربية عن ملوك اليمن القديمة ، الذين يعرفون بالعرب البائدة أوالمندحرة وهى قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهـــم وغيرها من القبائل الموغلة فى القدم ، والتى ما من شك فى انها ترجع الى ما قبل الألف الثالث ق٠م وهى القبائل التى أهلكها التناحر القبلى المتواصل لاسباب غريبة لاتتعدى القحط والجدب والعصبية

القبلية العمياء وعبادة السلف • فمثلا افنت قبائل عاد معاصريهم قبائل بنى عفير بن لقيم بسبب جور رأس بنى لقيم ، سالم بن هزيعه ، الذى اذل امرأته شقيقة لقمان بن عاد وعندما نشبت الحرب بين القبيلتين ، هزمت قبائل عاد قبائل لقيم حتى أفنوهم عن آخرهم ، ولم يتركوا منهم احدا الا امرأة يقال لها صنيعة من بنى عمرو بن لقيم ، كانت متزوجة فى ـ قبيلة ـ ثمود رجلا من اشرافهم ، فولدت له رجلين يقال لهما الوضيع وغانم •

المهم أن هذه المرأة ، التى بيدت قبيلتها عن آخرها ، عادت فحملت انتقامها وسارت بولديها لاجئة الى « أختها من قبائل ثمود بن عابر بن ارم ابن سام وهم يومئذ أمنع العرب وأعزهم » وتسببت هذه المرأة فى اشعال لهيب حرب جديدة انتقامية بين عاد وثمود « فقتلتهم ثمود جميعا حتى أفنوهم عن وجه الارض » •

وطبعا كان لهذه القبائل المندثرة التى نحن بصدد الحديث عنها بقايا أساطيرها العرقية الضنينة ،التى تقول بأن الصحيفة التى أنزلها الله على آدم ثم نوح وابنه سام وابنه عابر أسلمها بدوره لابنه يعرب ، قائلا : « أنت يا ابنى صاحب الصحيفة ، سيقال لك وتقول فاضرب

بما في يديك » الى أن تبلبلت الالسن في حادث بناء مدينة بابل وبرجها الكبير ،« وانقسمت الالسن الى ٧٢ لسانا واجرى جبريل على لسان كل أمـه لغتها » فنطق الناس بالالســن العجمي والعربي وافصح يعـرب بالعربيــة ، وهــود أبوه « أما قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق ورائش فانهم نطقوا مع ابن عمهم عابر بالعربية فأدركتهم بركتها ، وشرفوا وتغلبوا على جميع من كان معهم من الالسن ، حتى زهوا على الناس ، وأظهروا فيهم الطغيان وأشرفوا على الناس ، وكانوا كذلك الى حين والناس اذ ذاك ببابل » .

يقول الطبري مؤكدا قدم هــذه القبائل ، انه وبعد أن خلق الله العـــالم « خلق مدينتين (عاد وثمود) بالسريانية ، ومرقيســيا وبرجيســيا ، ولكل مدينــة منهما عشرة آلاف باب بحراسهم ، ولولا جلبتهم وضجيجهم ، لسمع الناس من جميع أهل الدنيـــا هدة وقعة الشمس حين تطلع وحين تغرب ، ومن ورائهم ثلاث أمم : منسك ، وتافيل ، وتاريس ومن دونهم يأجوج ومأجوج » .

ومرة أخرى يشـــير المسعودي ، بما يؤكد أن بقايا هـــذه القبائل البائدة أو المندثرة أي جرهم والعماليق ورائش كانت أسبق في الوجــود من نظائرها أو أشقائها من العرب العدنانيين ، الذين

هم من نسل اسماعيل ــ أعظم صيادى البرية ــ ابن النبى ابراهيم من هاجر المصرية جارية سارة أو ساراى « زوجة ابراهيم وابنة عمه وأخته فى الرضاعة » ، وما هــو معروف عن صراع هاتين الضرتين ، فلما كانت ســارة الزوجــة الحضرية ــ أم القبيلة ــ عقيما وولد لابراهيم اسماعيل من هاجر فغارت سارة ، وحمل ابراهيم هاجر وابنها اســماعيل الى مكة فأسكنها بها وتركها وابنها عائدا شاكيا « **رب اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم** » .

يقول المسعودى :

« فآنس الله وحشــتهم بجرهم والعماليق وجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم » .

ومعنى هذا أن بقايا هذه القبائل المندثرة ، أى جرهم والعماليق ، كانت موجودة ، بزمن سابق على وجود أشقائهم العدنانيين ، وكذلك العبريون نسبة الى الفرع الانثوى أو الاموى .

وتواصل أسطورة أرض ميعاد يعرب بن قحطان ابن النبى هود ، الذى أرسله الله الى أرض بابل نبيا (**والى عاد أخاهم هودا**) وكيف أن هودا رأى رؤيا « كأن آتيا أتاه فقال له ياهود ، اذا ضربت رائحة المسك اليك والى أحد من ولدك من ناحية من

نواحى الارض ، فلتتبع تلك الناحية من رائحة المسك ، ذلك النسيم حتى اذا كف عنه نزل ، فذلك مستقره » .

يقول وهب بن منبه الحميرى « وان يعرب بن قحطان بن هود ، وجد رائحة المسك ، فقال له هود : أنت ميمون يا يعرب ، أنت أيمن ، ولدى مر فاذا سكن عنك ما تجده ، فانزل بأرض اليمن لا تمر ، فانها لك خير وطن » .

خلاصة القول ، أنه مامن شعب أورهط أو قبيلة ، لم يحفظ لها تراثها وتاريخها أسطورة أرض ميعاد ، تحدد لها أرضها ووطنها .

لكن مشكلة المشاكل ، هى فى ضياع وافتقاد هذا التراث ، على مر عصور الاضمحلال الطويلة الثقيلة القاسية .

الفصـــل الثانى

« أساطير السومريين عند العرب الساميين »

واذا ما حاولنا تتبع المراحل التى قطعها تطور الآلهة والاساطير السومرية ، بعد أن توارثها الكلدانيون والبابليون والآشوريون أى الفرع السامى سكان الحضر فى دلتا العراق ، ثم كيف انتقلت عبرهم الى القبائل العربية أو السامية الاخرى فى مكة والحجاز واليمن والشام وفلسطين وما لحقها وطرأ عليها من تغيير وتبديل واضافات نجد الآثار السامية قد كشفت أن الآشوريين واليمنيين كانوا يحتفظون بأوثان الآلهة السومرية التى توارثها الكلدانيون من اسلافهم السومريين اللاساميين القدماء ٠

فلقد كانت بابل وآشور هما بمثابة المنبع الاكثر خصوبة وتحضرا والذى فاض على مايجاوره من تخوم وقبائل ، مثل القبائل العربية ، على طول شبه الجزيرة ، بل ومن نفس أور الكدانيين بين النهرين خرجت ونزحت قبائل ابراهيم وآشور السامية الى الشام وفلسطين قبل انتهاء الألف الثالثة قبل الميلاد ٠

وكشفت الدراسات الاسطورية المقارنة عن أن هناك أساسا أسطوريا عقائديا بل لاهوتيا مشتركا لأغلب هذه الشعوب السامية منذ أكثر من ألفى عام قبل الميلاد ، سواء فيما بين النهرين

أو في مكة واليمن والشام وفلسطين فالاله الكلداني البابلي بعل الذي من اسمه تسمت بعلبك في لبنان ، ظهر منذ بداية الالف الثالثة ق • م • عند البابليين باسم « بل » وعنهم أخذه الكنعانيون ولقبوه بالسيد ، أى « زوج » ، وجمعها بعليم « قضاة ــ ١١ ــ ٢ » والصيغة المؤنثة منه ، هى بعليت أو بعلاية •

وعرفت ديانة البعل ــ كاله ولقب ــ فى سوريا وفلسطين منذ بداية الالف الثانية قبل الميلاد • ثم تطورت ديانته ودخلت فى اللاهوت المحلى ، بعد ذلك الزمن فأصبح لكل مدينة بعلها أو ربها الحامى ، وتنوعت ألقابه ، فالالهة « ميلكارث » كانت بعل طيرة ، بينما أصبحت عشتروت هى البعلة الانثى فى بيبلوص • وعندما نزل الساميون الاوائل فلسطين ، وجدوا عديدا من الاماكن غير السامية ــ المقدسة مثل الاشجار والجبال وآبار الماء فأطلقوا على كل منها اسم بعل ، وعن هذا الطريق عبد سكان كل مدينة بعلها المتفرد كاله محلى • وبتوالى العصور دخلت ديانة البعليم لدى كل شعوب الشرق الادنى القديمة فأصبح الها للسماء ، بل انه توحد بالسماء ، وانزال المطر وعرف ببعل شيم عند شعوب آسيا الغربية ، كما توحد مع حرارة الشمس التى منها ينبت

النبات ويكثر الاخصـــاب كما أن من القابه التي عرف بها اله التنبؤ . ومن اسم بعل جاءت تسمية البطل القرطاجني هانيبال ـ وقرطاجنـــة كانت من أقدم المستعمرات الفينيقية ـ كمـــا أن من أسمائه الاخرى بعل قبيلة جاد ، وبعل زيفـــون وبعل زيبوب أو الذباب . كما أن البعل توحـد بالاله السومرى الذي توارثه الساميون وهو الاله ميردوخ أو مردوك ، والذى أصبح الوريث الشرعى لسلطان الاله الآشورى آشــــور ، الذى تضاعف نفوذه عقب اضمحلال آشور ، وكان يعرف باسم « بعلو » .

يقول « أورث » فى كتابه « ديانة البعليم » أن بعل العبرى هو بنفسه الاله هبل اله قبيلة قريش فى مكة .. وقال : « وفى اعتقادى أن عبادة البعليم ليست بعبادة فلكية أو تنبؤية فى منبتها الاصلى ، ذلك لان علم النجوم لم يعرف فى آســيا الغربية قبل عصر الآشوريين والكلدانيين » .

ويرى المســـتشرق نولدكه « أن اللقب الالهى بعل ـ أى السيد أو الزوج ـ كان معروفا لدى الساميين الشماليين ، وعنهم توارثه عرب شبه جزيرة سيناء فعرف عندهم باسم « بعلو » ووجد فى النقوش عقب أسماء الاعلام مثل « عبد البعلى » و « أوس البعلى » و « جرم البعلى » .

يقـول ابن حـزم أن فى بعض كتب اليهـود تفسيرا لتيه بنى اسرائيل مع موسى فى سـيناء « حتى ماتوا كلهم ، انما كانت لان فرعون كان قد بنى على طريق مصر الى الشـام صنما سماه بعل صفون ، وجعله طلسما لكل من هرب من مصر ، يحيره ولا يقدر على النفاذ منه » .

ويرى نولدكه أن عرب شبه الجزيرة العربية ، أخذوه عن عرب شبه جزيرة سيناء وعنهم «عرفوه لفظا ومعنى » ، ووجد فى التنزيل « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » .

ويقال ان أول من استقدمه الى مكة هو عمر بن لحى الجرهمى ، فقد قدم بصـنم يقال له « هبل » وكان هبل من أعظم أصنام قريش ، فنصبه على البئر فى بطن الكعبـة ، وأمر الناس بعبادته ، فكان الرجل اذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت ، وحلق رأسه عنده « وكان اسم البئر التى فى بطن الكعبة « الاخسف » والعرب تسميها « الاخشف » كمـا يقـول الأزرقى فى أخبار مكة .

ونظرا لان الساميين بعامة قدسوا موارد المياه، واعتبروها مهبط عرش الله . فان اقامة هذا الاله الجـديد ، بعل أو هبل ، على بئر ماء يشـير الى علاقته بالرزق والاخصـاب عند العرب ، كذلك

عرف بكونه الاله واهب النعم ، لدى القبائل العبرية .
وكان العرب يقسمون به كرب للارباب ، كما كانوا يضربون القداح عنده قبل اقدامهم على حفر بئر جديدة ، وضرب القداح عند العرب يشير الى القضاء والقدر والمكتوب والوعد والحظ والقسمة والنصيب ، وغلبة الزمن والدهر ، كما كان عندهم آلهة للبخت أخذوها عن الحرانيين .
وينسب لعمر بن لحى الجرهمي ، أنه أول من جاء بأصنام هذه الالهه من الكلدانيين ــ العراقيين ــ والانباط ، ونصبها حول الكعبة .

وكان تمثال الاله « بعل » أو « بيل » عند الكلدانيين والآراميين، على هيئة ملك جليل جالس على عرشه ، وعلى هذا تعارف عليه العلماء عندما وجدوه فى الكعبة ، وعرفوا على الفور انه اله دخيل مجلوب من الخارج ، يقول ابن الكلبى صاحب كتاب « الاصنام » . « كان فيما بلغنى ، من عقيق أحمر على صورة الانسان مكسور اليد اليمنى،أدركته قريش فجعلوا له يدا من الذهب» .
وفى احدى الملاحم الشعرية الكنعانية عن صراع البعل ، كاله للسماء ، يتبدى البعل كاله للسماء ، « متلفحا بالسماء لباسا ».وتروى قصته كيف أنه أغرى بالنزول الى العالم السفلى ،

واحتجزته الشـــياطين من أعدائه ، لكنه قاومهم بنبوته المطلسم ، واستطاع أن يعود ثانية الى عالمه العلوى « عنـد قمم أشجار السنط المرتفعة » ٠ كما يتبدى البعل الكنعانى فى هــذه القصيدة ، وهـــو يحيا فى خوف دائم من أن تتمكن حيتان البحر من اختطاف بنـاته الثلاث ، وهن « اللات والعزى ومناة » ٠

والملفت أن هـذه الملحمة الاســطورية ماتزال تعيش على الشفاه الى اليوم ، باسم حدوتة « سعد الدين » وسأوردها فى الجزء الثانى من هذا الكتاب عن « أساطير وملاحم العالم العربى » ٠

وفى بعض المصـــادر العبـرية ـ المدراش ـ يتبدى البعل ، كقرين للريح ٠ والبعل هو أصل الاله العبرى ـ يهوه « فالاله يهوه هو أيضا كان ريح الشـــمال فى الازمان المبكرة ، أى قبل أن يصبح الها ساميا رفيعا » ٠

وظل على صورته هـــذه حتى عصر الملك داود حين خاطبه : « عنـــدما تسمع صـوت أقدام فى رءوس أشجار البكاء حينئذ احترس ، لانه اذ ذاك يخرج الرب أمامك » ٠

ويبدو أن العبريين كانوا قد اســتعاروه من الكنعانيين ـ الشوام ـ الذين عبدوه كاله وحاكم على العالم الآخر الشمالى ، أما فلسطينيو ـ عكرون ـ

فقد اتخذوه الها للتنبؤ ، كما أن من القابه « سيد الشـــمال » ومن اسمه تسمت قبيلة زبولون ، وزار وحيه الملك أشعيا ملك اسرائيل فى عقرون (الملوك الثانى ــ ١٠) .

كما يرى البعض أن البعل هـــو الاصل الذى منه جاء الاله آشور فى الميثولوجى الآشـــورى ، وكان يصور على هيئة نسر له رأســـان وجناحان مقدسان ، فى هيئة المحارب ، وتظهر عشـــتروت كثيرا كزوجته وشريكة حكمه . كما يرى البعض أن عاشوراء (أول شهور السنة الاسلامية) أو أهورا الفارسية من بقايا شعائر الاله آشـــور ، الذى من اسمه تسمى الملوك الآشوريون .

وبعل أو هبل هو الاله الذى عناه الملك الكاهن الجاهلى الشـــاعر عمر بن لحى الجرهمى بقوله : « ان ربكم يتصيف باللات لبرد الطايف ، ويشتو بالعزى لحر تهامه » .

فلقد كان للاله بعل أو هبل ، رب الارباب فى الميثولوجى البابلى ، بنات ثلاث ، هن« ايرشكيجال» الهة العوالم السفلى أو الجحيم وأخواتها الانثيات « مامناتو »و« عشتر »أو« عشتروت »وهن الآلهات الثلاث اللاتى عرفن بـ « بنات الله الثلاث » .

فالهة العوالم السـفلى والموت والظـلام ، ايرشكيجال عند السومريين والتى عنهم أخـذها خلفاؤهم وورثتهم الساميون البابليـون ، ولقبت باسم « اللات » للمرة الاولى فى احـدى قصائد الفروسـية البابلية ، وهى ملحمة الملك ازدوبار الذى يرى البعض أنه هـو بعينه نمرود الجبار ، الذى ما تزال تتواتر حواديتـه على طول الشرق الادنى ، مع الخليل ابراهيم •

وايرشكيجال هى بروسر بين ملكة المناطق السفلى أو عالم تحت الأرض عند الأسيويين ، سكان غرب آسيا ، أو الشرق العربى بعامة ، كما انها برسيفون عند الاغريق ، وهى اللات عند البابليين والقبائل العربية ، من مكيه ويمنية ونبطية ، ويبدو أنها كانت عند منشئها آلهة شـمسية ، مما يؤكـد قول عمر بن لحى الجرهمى « ربكم يتصيف باللات » من أنها كانت الهة فصل الصيف والقيظ والشمس المحرقة بجدبها وعطشها ، عنـد العرب المكيين •

كما أن اللات عندما دخلت الميثولوجى السورى ، أصبحت قرينة الاله « حداد » ، اله المطر ، ولقبت بربة البيت عند الانباط ، كما تشير بهذا حفريات بعلبك ، وباختصار فان اللات كالهة للشـمس ،

كما يرى « ولهوسن » ، دخيلة على العـرب المكيين كما يرى ابن الكلبى « هى أحـدث من مناة » . ويقال ان عمر بن لحى ، قد جاء بها من النبطيين ، وكانوا يعتبرونها الهة الشمس .

أما الاخت الثانيـــة من بنات الله الثـلاث فهى « العزى » وعرفت بدورها تحت هذا الاسم فى الميثولوجيا البابلية izzu Sarri وقيل أن معناها ملك أو اله النار ، فالعزو هى النار فى اللغـــة البابلية ، ومعناها فى العبرية الشـــدة أو القـوة (تاريخ كلد وآشور مجلد ١ ص ٨) .

وبحسب رواية تيودوروس بركونى ، هى نجم، الصبح ، ولها أسماؤها المختلفة باختلاف الالسن « فطىء دعتهـــا عوزى ، واليـــونان أفروديت ، والقدشـــيون طشـــقميت والكلدانيـــون بلتى أو ـ بلثى والاراميون أستيرا ، والرداتيون ملكة أشعيا ، والعرب ناتى » .

ويمكن القول بأن العزى عند العـرب ، هى فى منبتها الاصلى « اينانا » عند السومريين ، والتى اشتهرت بأســـمها الاكادى عشـــتروت عنـــد البابليين وأناثا ـ أى أنثى ـ عندالكنعانيين وايزيس فى مصر ، وافروديت عند اليونان وفينـوس عند الرومان وكوبيلا عند الحيثيين .

يقول نولدكه : « ان الشاعر السورى اسحاق الانطاكي الذى كان يعيش فى أوائل القرن الخامس الميلادى ذكر احتفاء العرب بعبادتهم العزى أونجم الصباح أو الزهرة ـ فينوس ـ كما يقال أنهم كانوا يقدمون لها التضحيات ، فالمنذر ملك الحيرة قدم لهـا قربانا من الاسرى ، وقيـل أنه ـ أى المنذر ـ ذبح ابن حليفه المسيحى الملك الحارس ، قربانا لها » ٠

« ان ربكم يشتو بالعزى لحر تهامه ، الهة فصل الشتاء والاخضرار والخصب والجنس » (١) كما يقول الملك الكاهن ، عمر بن لحى ٠:

فكانت العزى الهة للجنس والاخصـاب عند العرب ، كما كانت عند البابليين ٠ ويعتبر الحمام والغزال من طيورها وحيواناتها المقدسة ، وهما نفس شعائرها عند البابليين والسنوريين والنبطيين، وكان العرب الجاهليون مغرمين بتشبيه النسـاء الجميلات بالغزال ٠

يقول الالوسى : « كانت المـرأة من العرب اذا عسر عليها خاطب النكاح ، نثرت جانبا من شعرها وكحلت احدى عينيها ، وحجلت على احدى رجليها

---

(١) البدء والتاريخ للبلخى ج ٣ ٠

ويكون ذلك ليلا ، وتقول : يانكـاح أبغي النكاح قبل الصباح ، أى أنها تريد الزواج أو المخالطة الجنسية قبل ظهور نجم الصباح أو الزهرة وتحفل المواويل والاغانى الشعبية ، بآلاف القطع الشعرية التى تتغنى الى اليوم بنجمة الصبح .

ويضيف سميث ، أن عبادة الزهرة ـ أو نجم الصباح ـ انتشرت في اليمن ، وخلال اقامة شعائر أعيادها كانت تقام الاحتفالات والافراح المختلطة ، أو ماعرف عند معظم الشعوب والاقوام السامية ، بالعرس المختلط ، وما تزال بقاياه سارية ، حتى وقت قريب ، خلال الاحتفالات بالموالد المحلية ، على طول مصر والعـــالم العربى ، وربما ما تزال أيضـــا تقويمات العرس المختلط ســـارية يجرى التعامل بها .

يتضح من هذا أن منابع الميثولوجيا العربيـة تضرب بجذورها على مدى ٦ آلاف عام ، أى منـذ السومريين غير الساميين ، الذين توارثهم العرب واليهود الساميون .

الفصــــل الثالث

أساطير وفولكلور بر الشام
سوريا ـــ لبنان ـــ فلسطين

واذا ما حاولنا التعرف على القســم الغربى أو الكنعانى للاقوام السامية فىسوريا ولبنانوالاردن وفلسطين ، الذى يرجعهالبعضالى هجرات سامية، جاءت بالامورين الى الهلال الخصيب وتألفت منهذه الموجه الكنعانيون ، الذين ســكنوا غربى الشــام وفلسطين حوالى ٢٥٠٠ ق ٠ م ٠

أما الساحليون منهم فهم الذين سماهم الاغريق بالفينيقيين ، أقــدم شعوب العالم اقتحـاما للبحار والمحيطات ٠

وطبعا كان لهذه القبائل الكنعانية أو الفينيقية ، أسطورتها الأم ، التى ترسم وتحــدد لهم ارض ميعادهم فى الشام وفلسطين بنفس ماحدث مـع شقيقاتها ــ من الأقوام ــ السامية الأخرى ، مثل أسطورة أرض ميعاد يعرب ، التى حـددت لهـا الميثولوجيا القحطانية أرض اليمن ، أو أرض المر « وأسطورة أرض ميعاد قبيلة ابراهيم العبرية فى أرض فلسطين ، أرض اللبن والعســل » وكذلك بالنسبة لاسطورة أرض ميعاد كنعان أبو الاقوام الكنعانية ، وهو كنعانابن حام ،وخطيئته المعروفة مع ابيه نوح ، والتى بسببها اصبح وجه الحامين اسود ، حـين غرس نوح كـرما ــ وكان أول من غرس الكرم ــ وسكر من عصيره وثمل وانكشف، فشهده ابنه حام وسخر منه ، وعندما عرف نوح ،

لعن كنعان آخر أبناء حام « ملعون كنعان عبدا يكون لعبيد اخوته » (١) .

وتتفق الاسطورتان ، العبرية والعربية ، فى ان كنعان انفصل عن اخوته وبقية قبيلته من ابناء نوح ، مثلما حدث قبلا لجده الأعلى قابيل ، قاتل أخيه ومغتاله هابيل ، هام على وجهه يضرب فى الأرض ، فبعد ان اصبح كنعان ملعونا طريدا امبغضا من أخوته ، مر منزويا يطلب وطنا آخر وأرضا جديدة ، فنزل أرض ميعاده « أرض كنعان» أو الكنعانية فى لبنان ،وانتشر أبناؤه الاحد عشر فى الشام وفلسطين وهم « الصيدونيون » الذين انشأوا مدينة صيدا ، نسبة الى ابيهم « صيدون » والحيثيون «أبناء حث» واليبوسيون « أبناء يبوس» والأموريون « أبناء أموز » والجرجاشيون « أبناء جرجاش » والحويون « ابناء حو » والعرقيون « ابناء غرق » والسنيون « ابناء سن » والاروادیون « ابناء اروآد » والصماريون « ابناء صمار » والحماتيون « ابناء حماة » (٢) .

وهم كلهم الاحد عشر قبيلة أو سبطا . ابناء كنعان الذين لحقتهم وطاردتهم لعنة جدهم حام .

---

(١) التكوين ٩ : ٢٠ ، ٢٧ .

(٢) لاحظ ابناء عاد ويعرب ويعقوب ، واسماعيل الخ .

التى تحمل وزرها من بعده ابنـــه ، فتعقبته فى ذريته • وعلى هذا حولهم العرب والعبريون الى سخرة «يقطعون الخشب ويحملون الماء كمايقول توينبى •» على اعتبار انهم أجناس واطئة •

بل ان العرب ســاووهم بالبربر والنوبيين ، فكان كنعان أخا لهم كما يقول النسابة العـرب ، فبعد اللعنة « ولدت امرأة حام غلاما ، لونه اسود، وسموه كوشا ، وولدلكوش ، الحبشة بن كوش ، اماشقيقة الثاني الذى لحقته أيضا لعنة ابيه ، وهو ماريع بن حام ، فقد ولد ثلاثه أولاد ـ أو اجناس وهم كنعان وبربر والنوبة » •

واستنادا الى أقدم المصادر العربية ، وهو عبيد بن شريه الجرهمى ، الذى يقول « وأما ولد كنعان بن كوش بن حام ، فهم البربر ، وساروا حتى نزلوا بفلسطين وبيت المقدس »

ولقـد اعتبر العرب واليهــود ، ان المصريين القدماء منحدرون من نسل حام واولاده من البرابرة بمعنى انهم ايضـا اجناس ادنى من اشـــقائهم الساميين ، ومن هنا فقـــد وحدوا بين المصريين والكنعانيين •

والغريب ان الكشـوف الحفرية الكنعانيـــة جاءت فأكدت هذه المعلومة الاسـطورية ، فأكدت هذه الكشوف الاثرية أو الحفرية أو الاركيولوجية

ان الفينيقيين كانوا جزءا من العالم الكنعانى الذى تشكل من الهجرات السامية منذ فجر التاريخ ، وهى تلك الكشوف التى عثر عليها فى « بيبلوص الاغريقية » ومكانها اليوم احدى القرى الصغيرة الواقعة الى الشمال من مدينة بيروت ، وهى ماتعرف اليوم بقرية جبيل أو جبل ، وترجع هذه الكشوف الى الالف الثالثة ق٠م٠

وكذلك دعمتها كشوف « رأس شمرا » فى فلسطين التى ترجع الى بداية القرن الرابع عشر ق ٠ م والتى عثر عليها عام ١٩٢٩ ٠ وكذلك أشارت اليه كشوف البحر الميت ٠

الغريب ان هذه الكشوف الكنعانية الفينيقية الفلسطينية جاءت فأكدت العلاقة الشديدة بين حام وكنعان ، أو بين المصريين والشوام الكنعانيين، اذ أنهم اعتبروا اوزيريس أخا لكنعان «وكان كنعان اول من سمى «فينقس» » فكانت اعياد ـــ قيامة ـــ الاله المصرى اوزيريس ، تقام فى مدينة جبل الكنعانية أو اللبنانية كما أن فى مكان الاسكندرية القديمة ، أو فاروس كانت تقام أعياد وشعائر أدونيس الفينيقى « فقد جعلوا من كنعان أخا لأوزيريس ، دلالة على وحدة نسب الامتين » ٠

وفى احدى أساطير الخلق البابلية ، التى تتفق مع اساطير مدينة صيداء ، يبدو كنعان أخا لحام ،

فيقال « ان بعل ـ كرونوس ـ ولد بعل آخر ـ هو كنعان ، ومن كنعان جاء كنعان أبو الكنعانيين أو الفينيقيين ، كما انه انجب حاما ، الذى يسميه اليونان أسبول ، وكان أخا لمصرائيم ، وأبا للاثيوبيين والمصريين » .

ويمكن القول انه بقدر ما ناسبت أو تقاربت الاساطير والتراث الحضارى بعامة لبابل وآشور أو حضارة مابين النهرين فى العراق بالاضافة الى حضارة العرب القحطانيين من جانب ، وبين جيرانهم من الفرس الآريين من جانب آخر ، حدث نفس القدر بالنسبة للحضارتين المتجاورتين ، المصرية القديمة ، ولاحقتها الحضارة الكنعانية الفينيقة فى مدن ـ دول ـ الشام وفلسطين . وهى الحضارة التى ترجع ارهاصاتها الى بداية الألف الثالثة قبل الميلاد ، والتى عرفت اماراتها ، أو مدنها الدول فى مدن صور وصيدا وبيبلوص ودمشق وبعلبك ، جوهر الهيلينية كمجتمع ثقافى مستنير هدفه الأخير الانسان : حقوقه وواجباته ، قبل أن يعرفها الهلينيون أنفسهم بقرون ، تصل الى ٢٠ قرنا . كما يحددها د . تويتبى . بل استمد اليونانيون عنهم تراثهم ودعائم حضارتهم ، فمن المعروف ان فينقيا استعمرت الجزر القرطاجينية فى البحر الايجى ، ومركزها جزيرة

كـــريت فى مرحلة ماقبـــل الهيلينية بقـــرون طويلة ، أى أن الميثولوجى الهيلينى جاء كنتيجـة شبه مباشرة لنظيره وســابقه الفينيقى ، بعد أن نقله الفينيقيون خلال تجارتهم البحرية الواســعة التى كانت مضرب الامثال على طول تاريخ العالم القديم ، الى مستعمراتهم فى جزر البحر الايجى ، والساحل الافريقى عامة .

فالبانثيون الفينيقى ، هـــو نفســـه البانثيون الايجى ، والالهـــة الفينيقية ، هى بذاتها ما جاءت بها الكشوف الحفرية القرطاجينية فى جـــزيرتى قرطاجنة فى تونس وكريت ٠مثل بعل هامان والاله اشمون وادونيس والاله المصرى ـــ بس اله مصر وغرب آسيا . والبعلة ، وكذلك بقية الحكايات والرموز الفينيقية الســـحرية مثل « خمســة وخميسة » والعين الحاســـدة ، والنفس الخالق ٠ فيقال ان مؤسس اثينا هو « مكروبس المصرى ، الذى استوطن فى اثينا ، وكان ذلك قبل الميلاد بـــ ١٥٠٢ عاما ، وأثينا هى ما أصبحت موطنا للعلوم والفنون ، بعد أن ألقى فيها مكروبس المصرى حياة التمدن فعرفهم الدين وســـن لهم التزوج بعد ان كانوا لايعرفونه ، وأنشأ محكمة تسمى أريوباجة٠ وكذلك دانيوس ، وهو مصرى آخر آدخل الفلاحة فى مملكة ارجوس » .

كما ينسب لقادموس الصورى انه هو الذى عمر مدينة طيرة باقليم بيوتيا ، وعلم اهلها زراعة العنب وعمل المعادن ، كما علمهم الحروف الهجائية .

ويبدو ان الفينيقيين الساحليين سكان المدن الدول صور وصيدا ، كانوا الى جانب كونهم صيادين مهرة قد اقتحموا البحر منذ عصور قديمة، كانوا صناعاحرفيين ، نظرا لعقم الارض الزراعية، مما دفعهم الى ركوب البحر وعدم النفور منه ، كما حدث مع المصريين الذين كرهوا البحر ، ونفروا منه ، واكثروا من طرائفهم ووساوسهم عنه فعده ـ تابو ـ وحرم على الملوك والكهنة رؤيته او الاقامة الى جواره .

ومما ساعد الفينيقيين على اقتحام البحر ، وجود الخشب الذى تصنع منه السفن فى غابات جبل لبنان ، فنزحت بعض القبائل الكنعانية الى جزيرة قبرص وروذس وصقلية وسردينيا ، وانتشروا فى جزر اليونان البربرية ، وحققوا مكاسب هائلة من تجارتهم الواسعة ، فيقال انه لما كثرت عندهم الفضة ، واستثقلوا حملها فى بعض الاسفار ، صنعوا منها هلوبا ، ـ جمع هلب ـ لمراكبهم بدلا من الرصاص .

والغريب ان هؤلاء الفينيقيين اتهموا من جانب

جيرانهم القدماء ، بتسترهم وتكتمهم لما توصلوا اليه من علوم وخبرات بحرية ، احتكروا معرفتها وحجبوها عن بقية جيرانهم المصريين والبابليين والأشوريين وغيرهم ، ويقال ان أحد فراعنة مصر تبنى رحلة بحرية ، قام بها البحارة الصوريون التجار لاستكشاف قارة افريقيا ، فساروا فى البحر الاحمر ثلاث سنين وطافوا أفريقيا ، وعادوا فى نهاية السنة الثالثة من منبع النيل ، حتى مصبه ، لكنهم بخلوا بنتيجة رحلتهم الاستكشافية المبكرة هذه على المصريين .

فلقد كانت فينيقيا ـ فى أغلب عصورها ـ واقعة كلية تحت النفوذ المصرى ، والبانثيون المصرى ، كما سنتناوله بتفصيل أكبر . فيمكن القول بأن مصر القديمة ـ كمؤثر حضارى ـ كانت المصدر الام الذى عنه حمل الكنعانيون أو الفينيقيون ، تراثه الحضارى ـ واضافوا عليه ـ الى حضارة البحر الابيض المتوسط ، التى تبدت بعد ذلك فى حضارة المدن الدول أو الحضارة الهلينية والرومانية فيما بعد .

وليس هذا بجديد ، اذ ان احد كبار مصادر الميثولوجيا أوالاساطير الفينيقية ، وهو «فيلوالجبلى» حاول اثباته ، ان لم يكن قد أثبته فعلا ، منذ منتصف القرن الاول الميلادى ، أى منذ عشرين قرنا ، فلقد كرس

هذا المؤلف حياته لاثبات ان الاســاطير والتراث الشعائرى الفينيقى ، هــو ما اخــذه اليونانيون واقاموا عليه تراثهم قائلا : « ان اليونان الذين يفضلون ســواهم فى التمدن والتحضر ، انتحلوا جميع الاخبار والحكايات الفينيقية ، ورغبة منهم فى ان يخلبــوا الالباب بمحاســن الحكــايات الخرافية ، اضافوا عليها بكثرة لاحــد لها ، كل ماأسعفتهم به مخيلتهم ، ومنهــم الشــاعر هسيود وبقية الشــعراء الجــوالين الذين ملأوا العالم بخــوارقهم وحــكاياتهم فهم الذين أخــذوا عن الفينيقيين علومهم ومعارفهم عن الالهة ، وحروب الجبابرة وغير ذلك ، أما عن اختلاقاتهم المتواليــة التى نشروها فى كل صوب ، فقد عــودت الناس على الاكاذيب ، وخنق الحقائق .

وكان فيلو الجبلى أو البيبلوصى هذا من سكان مدينة جبل اوجبيل بلبنان ، ويرجح البعــض انه شخصية أسطورية مثل هوميروس ، كما يقال بأنه استعار تاريخه أو أساطيره أو أعماله هــذه ، من كاتب فينيقى سابق عليه بحوالى أربعة قرون، وهذا الكاتب هو « سنكن يتن » بل ان فيلو البيبلوصى نفســه قال عن ســلفه يتن ، انه كان أول من دون هذا التاريخ « البعيد عن الخرافة » كما قال « ان سنكن يتن قد وفق الى العثــور عــلى الكتابات

السرية المنقوشة على الاساطين وحجارة الرقى، والتي تخبأ وتحفظ في اخفى اماكـــن الهياكـــل سرية » .

وبدأ فيلو أو « سنكن يتن » تاريخه ، على عادة ماتبعه الساميون ، أى بأدئا من بدء قصة الخليقه وبشكل ادق بفكرة البيضة الخالقة ، كما جـاءت بها اســاطير الخلق المصرية ، « فبعــد ان لقحـت الريح البيضة الخالقة وبعثت فيها بالنفس الخالق، أخرجت ذرية كنعان في فينيقيا ، الذين ولدوا في ذرية الانسانين الاولين أو الخالقين ، وهما يون أو الدهر أو الزمن ـ وبروتوجون أو حـــواء البكر المولودة الاولى ، ومنهما جاءت ذرية فينقيا وعددهم ماتتان ، فســـموهم النور والنار واللهب ، وبعد ذلك أنجب هـــؤلاء الـكنعانيون أولادا ضـخام الاجسام ، طوال القامات ، وســميت الجبال التي ملكوها باسمائهم ، وهي « قاســـيون ولبنـــان وانتيلبنان وبراتى ، وولد من صلب هؤلاء الابطال بعد زواجهم من نساء عاهرات بلسامين اوشـــميم روم ـ أى المرتفع في الســـموات العليا ـ وهـــو بعل شميم أى رب الســـموات » وتزوج عليون بالحسناء بيروت أو عشتروت ، فانجب منها الـــه الســـماء واخته الهة الارض ، وأما عليون فهلك خلال صراعه مع الوحوش الضارية ، وكان ان الهه

أبناؤه وعبدوه ، وخلفه ابنه اله السماء الذى تزوج باخته الهة الارض ، فولدت له اربعة اولاد ، هم ايل أو كرونس (١) ، أو بيت ايل ، وهو ماكان يطلق على جبل لبنان ، وأحيانا على لبنان عامة ، وداجون (٢) اله الحبوب وسيتون وعتل — أى الحزين المضطهد ، ومعناه الذى ماتزال تحفظه الذاكرة الشعبية « عتل الهم » أى كابده وحمله ، وينسب لهذا الاله انه أول من اخترع الملاحة ، ويرى البعض ان عتل يصنف مع هرمس واخنوخ أو ادريس ... الخ ، وتحكى أسطورة الخلق الكنعانية هذه عن خطايا متلاحقة ، ارتكبها — اله السماء — منها زواجه بنساء كثيرات ، أنجب منهن ذرية لاحصر لها ، ومنها انه هجر زوجته الهة الارض وحاول قتل أبنائها مرارا وبلا هوادة .

لكن ابنه البكر ايل ما ان بلغ مبلغ الرجال ، حتى اتخذ الاله « توت أو تحوت » اله الكتابه الذى عرفه الساميون — فيما بعد — فى الملاك جبرائيل كاتبا لأسراره ، ثم اشعل حروبا طاحنة ضد أبيه ، لاهانته لامه الارض ، وايل هو أعظم آلهة الشعوب السامية ، ومعناه فى اللغات السامية

---

(١) ساترن اليونانى .

(٢) الهة سومرية .

القدرةأو القوة ، وعند اليونانوالكلدان «ايليوس» أى الشمس ، ويذكر بنصه في التوراة على انه الله ، ومن اسمه جاءت تســـمية اسرائيل التى تسمى بها يعقوب عقب زواجه من راشيل أمالنبى يوسف ومعناهابالسريانية ولىالله أو ولىايل ، كما ان من اسمه جاءت تســـمية ملائكة العرش ــ أو أربعة اركان التابوت ــ عند كافةالشعوب السامية وهم جبرائيل وعزرائيل وميكائيل واسرافيــل • فجبرائيل رسول الله ، جبرا معناها رسول وايل الله ، وعزرائيل عبد الله ، عزرا معناها عبــد وايل الله • وميكائيل صفى الله ، ميــكا معناها صفى ، وايل الله ، واسرافيل ولى ايل (١) •

وبعد ان انتصر ايل عـــلى ابيه وتمكـــن من اصطياده وحبسه فى أعماق الهاوية بنى مدينـــة جبل أو بيبلوص فى فينقيا ، وعـرف بعــد ذلك بايل الوهيم ، أو برب الارباب • ويقال انه كان لايل ولد وحيد يدعى شديداً ، توهم فيه الغــدر يوما ، فذبحه بيديه ، وبعد ذلك فعل نفس الشيء بابنته ، فكان ان « خافته الآلهة وامتلأت قلوبهم رعبا » وعندما سئم أبوه اله السماء منفاه ، أرسل اليه بابنته عشروت وأختيهــا رية أو «ســميرنا» أو ديونا أو «بعلتى ــ أى سيدتى» للايقاع به لكن

---

(١) التيجانى ص ١٥٤ • وهبمنبه •

ايل تمكن من اســـتمالتهن وتزوج بهن ، وولد لايل من عشـــتروت ســـبع بنات ، يعرفن فى الميثولوجى الكنعانى بالطيطيات أو الترابيات كما انه انجب من رية سبعة ذكور ، وعاد فانجب من عشتروت ابنين آخرين هما الشوق والعشق ٠

وبعد ان حكم ايل ٣٢ عاما ، عاد فاوقع بابيه بعد ان نصب له الفخاخ التى أوقعه فيها ، وحين أصبح بين يديه مزق أطرافه وأعضـاءه ، وألقى بها مع دمه فى مياه الينابيع والابار والانهار ، ثم ان ايل وزع ملكه اللامحـدود عـلى أبنائه فأعطى عشتروت ملك أتيكه ، وهى جزء من بلاد اليونان، واعطى مدينة جبيل للالهة بعلتى ، ووهب بيروت لبوصيدون اله البحر ٠

وعندما تفشى الوباء فى ممالكه المترامية ، ذبح ابنه الوحيد ترضية لابيه السماء ، ويقال انه كان أول من اختتن ، وأمر جميع أهله أن يحنوا حنوه ويختتنوا ، كما ينسب لايل انه كان أول من تزوج بجنية مائية اسمها«عين عبريت» أو عفريت،وأنجب منها ولدا وحيدا ٠ ولذلك لايزال الفينيقى يسمى ابنه الوحيد ٠ يحيد أو وحيد ٠ الا أنه عاد فذبحه وبعد ذلك وهب حكم مصر للاله توت أو تحوت ، اله الفكر الذى اكتمل فى الملاك الرسول جبرائيل ٠

●●●

ولقـــد اختلف المؤرخـــون البيزانطيـــون

ـ بخاصة ـ فى التعرف على نسب ايل اله اسيا الغربية أو الساميين الاوائل الجبار هذا ، فنسبه البعض مع سام ونسبه البعض الآخر الى حام ووحده البعض الثالث مع ابراهيم الخليل ، ذلك ان جميع الشعوب والقبائل السامية ، ادعت انتماءها الى هذا الاله ، فظهر فى اخر اسمائهم مثل عموائيل واسماعيل أى سمع ايل ـ ورفائيل وميخائيل وصموئيل .. الخ .

ولقد حدد بلوتارك مكان اقامة ايل « فى جزيرة » أو فى « المجدبة ، التى هى خلف الاقيانوس الكرونى » . وفى بعض اساطيره ، ان حيتان البرارى أسرته واحتجزته فى احدى الجزر القريبة من الجزائر الانجليزية .

وينسب لايل الذى أصبح كرونس عند اليونان كما يقول فيلو انه كان يملك أربع عيون : عينان الى الامام ، وعينان الى الخلف ، عينان مفتوحتان ، وعينان نائمتان ، ومعنى هذا انه كان فى مقدور هذا الاله ايل «ان ينام متيقظا ، ويستيقظ وهو نائم » .

ولقد أدى استغراق ذلك الكاتب الفينيقى فيلو دفاعا عن فكرته أو وجهة نظره فى اثبات سبق الالهة والاساطير الفينيقية ، لنظيرتها ولاحقتها الهلينية اليونانية وهو ماأكده بعده سلفه سنكن يتن الذى نقل عنه ، دفاعا عن فكرته هذه التى حاول اثباتها

منذ ٢٠ قرنا وهي ان الميثولوجي الكنعاني الفينيقي هو الاصل الام الذى اشتق منه لاحقه الاغريقي ٠

رغم انه فاته التعرض لبقية التراث الشعائرى والاساطير الفينيقية ، التى كشفت عنها بالفعل ، كشوف رأس شمرا بفلسطين عام ١٩٢٩ ، عن أساطير الاله البعل ، أوجوبيتر ، وأدونيس أو تموز ودانيال ٠٠٠ الخ ٠

هذا على الرغم من ان كشوف رأس شمرا التى حدد عمرها بالقرن الرابع عشر قبل الميلاد جاءت فجلت الغموض الكثيف الذى اكتنف كوزومولوجى فيلو الدمشقى الذى ركز اغلب جهوده على أسطورة الاله ايل أو كرونس ولم يتعدها الا قليلا فمثلا أكدت هذه الكشوف الحفرية التى عثر عليها في رأس شمرا ان الاله عليون جد ايل الذى كان قد تزوج بالحسناء بيروت أو عشتروت، وانجب منها الهى السماء والارض ، لكنه مات خلال صراعه مع الوحوش فكان ان مزقته انياب الوحوش الضارية ٠٠ فهذا الاله الممزق ، لم يكن سوى أدونيس ، اله آسيا الغربية ومسيحها الممزق، المتوارث من السومريين ـ ٤ آلاف عام ق٠م ـ اللاساميين ٠

ولقد جاءت نصوص رأس شمرا ، باسطورة ادونيس ، الذى اصبح السلف المباشر للاله

هابونيجا ، وحل بعد ذلك محل الهتى الاخضرار « آلين » أو « علنين » و «موت» وليس هناك خلاف كبير بين نصوص رأس شمرا الادونيسيه ، وبين نصوص تموز البابلية ، فكلاهما ـ أودنيس وتموز ـ ولد من أمه التى سحرت نفسها الى شجرة المر ، ومن جذعها ولد ، وعشقته افروديت وخبأته من أختها الهة العوالم السفلى عند الاسيويين بعامة «بروسربين» أو «برسيفون» أو «اللات» عند عرب الجاهلية الاولى ٠

ويتوالى الصراع بين الاختين ويحتدم الى أن يصل مسامع كبير الالهة زيوس فيحكم بأن يقضى ادونيس نصف العام على وجه الارض ونصفه الآخر تحت الارض ٠

وقد تبدت شخصية ادونيس فى القرن السادس ق ٠ م ٠ متوحدا مع الاله الدمشقى أشمون ، ويرجع الى مدينة بيبلوص التى كانت مركزا للاهوت الادونيسي اشاعته فى مجمل العوالم الكنعانية والفينيقية فى سوريا ولبنان وفلسطين وكان أول تدوين لهذه الاسطورة الملخصة لتعاقب فصلى السنة ، أو الجدب والنماء ، قام به الشاعر «بانياس» فى القرن الخامس قبل الميلاد فجمع أسطورته ، وأعاد نظمها شعرا ٠

أما الاله البعل فى نصوص رأس شمرا ، فلم يكن سوى بعل تعفون ـ الذى تبدى فى المفهوم الشعبى على هيئة جوبيتر أو بعل لبنان وسيدها ٠

وهوالاله حداد اله المطر والرعد ، وكانت أمه الهة الاخصاب البحرية عشتر ٠

وعرف بعل تعفون فى الاساطير المصرية باسم ستخ ، وهو رمز أو انموذج ســمي به المصريون الآلهة الاجنبية ٠ كما انهم سموا الالهات الاجنبيات هاتورات كما ان العرب عرفوه باسم بعل تعفون ٠

وكان لبعل حداد الفينيفى بنات ثلاث هن روح الحصاد « موت » و « عالين » روح الربيع و «أنات» أو أناث أو أناثا بمعنى الانثى ، الهة المحاصيل العذراء ، التى كان يضحى لها فى موسم الحصاد ، وهى الالهة التى حملها الهكســوس الى مصر ، وقـدست فى أحيان أخـرى ، وينسب لهذهالآلهة أنها هى التى تغطى وجه الارض بالندى أو الطل ٠ « انها هى ـ أنات ـ التى تهب الارض دسمها » وكان من ألقـابها عنـــد المصريين « قادش » أو المقدسة،وكان الاسد حيوانها أو شعارها المقدس٠

أما الثور فكان الحيـوان المقـدس لايل ٠ ومن القابه « الثورايل » ونسـبت مكتشـــفات رأس شمرا ، للاله ايل ، انه أنجب ابنا يدعى «كريت» وكان كريت هذا ملكا على سدوم وأمره أبوه ايل بالقيـــام بغزوة تقودها الالهــة « تيرا » أو طيرة لتأديب شعب (١) زبولون ، وهى قبيلة أصبحت فيما بعد جزءا من اسرائيل ، كانت تشغل المنطقة

---

(١) نسبة الى زبولون ابن يعقوب ٠

الواقعة بين جبل الكرمل وبحيرة الجليل • وبعد أن عاد كريت من حـروبه ـ اشـــترى زوجة ـ أنجب منها طفلا جميــــلا كعشتر ، كريما كأنات « ويقال انه كان طفلا عجيبا ، اذ أنه ما أن ولد حتى دوى صوته صارخا « أنا أكره الاعداء» وسمى هذا الطفل « دانيال » وعنــــدما كبر أصبح بطلا أسطوريا ، فنبغ في فن العرافة ، وأنجب ابنـــة أصبحت فيما بعد (ملكة كل الاسرار) ويبدو أن دانيال هذا ، هو ما عناه النبى حزقيال ، حين قال لملك تيرا أو طيرة « أنت أعقل من دانيال ، ولا سر يخفى عليك » •

ويورد الدميرى (١) ، حكاية غريبة ، عن هـذا الطفـل الموعود المبكر ، دانيال ، فيقـــول : « ان الملـك الذى كان دانيـــال فى زمانه ، قد تنبأ له عرافوه ، بأن طفلا سيولد فى تلك الليلة ، يفسد عليه ملكه ، فأمر بقتل كل من يولد من الاطفال أجمة أو حظيرة أسد ولبؤة ، فبات الاسد ولبؤته يلحســـــانه فنجاه الله • ويقـــال ان أبا موسى الاشعرى ، لقى خاتما نقش على فصه أســـدان ، بينهما رجل وهما يلحسان ذلك الرجل » والمقصود به دانيال •

---

(١) حياة الحيوان للدميرى • ص « ٥ » •

كما كان من بين مكتشفات رأس شمرا ، الى جانب الاساطير الكنعانية ، مجموعة عظيمة من الملاحم والقصص الشعرية ، والحكايات التعليمية التى تكشف عن فجر الاخلاق ، وكذلك سير وحكايات الابطال وأنصاف الالهة الذين تزوجوا من بنات الناس • وهى تلك الحكايات المتصلة بالخلق والخطيئة الاولى ، فبعد أن قتل قابيل أخاه هابيل ، هام قابيل على وجهه ، فولد لآدم شيث الذى حل محل أخيه القاتل ، وعليه فقد سمى نسله من بعده بأبناء الله ، تمييزا له عن نسل أخيه قابيل القاتل الذى من نسله جاء الاشرار الذين عرفوا بأبناء الناس (١) •

ولما كان قابيل قد أقام منزويا فى أعلى جبل حرمون أو الحرمان فقد عشقت الملائكة بناته ، وأباحوا المعاصى والمحرمات •

وتنسب الميثولوجيا العربية ، للقبائل العربية البائدة انها جاءت الى الوجود بعد أن تزاوج الملائكة وبنات آدم ، فيقول الجاحظ : « وذكروا أن جرهما كان من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم، وكان الملك من الملائكة اذا عصى ربه فى السماء ، أهبطه الى الارض فى صورة رجل ، كما صنع

---

(٢) تكوين ٤ : ٢٥ و ٦ : ٢ •

بهاروت وماروت ، وما كان من شأنهما مع الزهرة، وهى أناهيد ، فحين هبط جرهم فى صورة رجل، وتزوج بامرأته ــ البشرية ــ أنجب جرهم » .

وقد وردت بهذه الاساطير والملاحم التى ترجع الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، أسماء الممالك والقبائل المندثرة ، مثل سدوم وعموره أو ثمود وعاد وتيرا Tyre وعرفات وجرهم ... الخ .

وأما عن الالهة عشتروت ، التى وجد هيكلها بالقرب من نهر ابراهيم وهو النهر الذى عرفه القدماء بنهر أدونيس وكان من أسماء عشتروت وألقابها المتعددة اسم بيروت الذى أطلق فيما بعد على العاصمة اللبنانية ، ويقال أنه كان لعشتروت ثلثمائة لقب ، منها : « يو ــ ياه ــ ديدا ــ عنت ــ تنيت ــ الزهرة ــ أرتميس ــ أوربا ــ بعلتى ــ اللات ــ الفرقد ــ حنه ــ نعمة » وهكذا .

ولقد عبدت الشعوب الكنعانية الفينيقية عشتر، باعتبارها آلهة بحرية طوفت فى كل أنحاء العالم الفينيقى البحرى أو الساحلى ، برفقة بوصيدون ــ نبتون ــ وبشكل محدد ، فان هذه الحضارة الساحلية البحرية الفينيقية ، خلقت آلهتها البحرية ، ومن هنا أصبحت (١) بيروت مركزا

---

(١) الجنبه المائية بيريه .

هاما لتأليه البحر ، فكان الكبيران آلهين بحريين • كما أن عشترت نفسها آلهة خرجت من زبد البحر • وينسب لبوصيدون بكر كنعان أنه أول من تسلط على البحر ، بأمر من أبيه ايل أو كرونس • كما ينسب لعشتر البحرية انها خلال طوافها على طول الساحل الشمالي الافريقي ، أسست في ليبيا مائة مدينة ، واسم ليبيا نفسه متواتر من اسم الالهة ليبيا ابنة «يوعشترت» ، وتذكر الاساطير الليبية انها هي يوعشترت التي بنت مدن فينيقيا ومصر وبلاد اليونان ، وقاطاجة •

وعندما تملك صيدون ابن كنعان المدينة الدولة صيدا أصبح ملكا على كل فينيقيا ، وتزوج «صور» وأنجب منها بدوره ابناء « كثيرين كرمل البحر » ، منهم قدم وفينق أو فينكس ، وفيليق ، وسور ، وتاس ، وسيبول ، وفيني ، ودريال ، وأوروبا ، وتملك هؤلاء الابناء الالهه ، بدورهم على كل الممالك الكنعانية ، ومصر وآسيا الصغرى ، بحسبما تشير به أساطيرهم •

لكن اسم صيدون ، ابن كنعان عمم فشمل كل القبائل الكنعانية ، كما أن (١) التوراة لقبت الكنعانيين بالصيدونيين في أماكن عدة وذلك لعدة

---

(١) عدد ١٣ : ٢٩ ـ أيوب ٤٠ : ٣٠ ـ أمثال ٣١ : ٢٤

أسباب منها : أن صيدون كان بكر كنعان الذى تضخم فأصبح أمما بدوره ، ومنها انهم كانوا أممـا ساحلية ، تعمل بالصيد والتجارة ، فلفظ صيدون يدل فى أصله على «صيد السمك والطيور » .

ويبدو انها تفرقة بيئية قصـد بها الساميون الرعاة « أصحاب الوبر » اطلاقها للتفريق بينهم وبين جيرانهم أصحاب الصيد والبحر ، كما انهم أطلقوها بعامة على الحاميين والكنعانيين ، ولما كانوا قد اعتبروا النماردة،حاميين أو كوشيين أوكنعانيين أجناسا واطئة فنمرود الجبار الكوشى أو الاسود ـ الذى حارب ابراهيم هو (١) ـأول جبارفى الارض، وكان جبار صيد أمام الرب ، ولذلك يقال كنمرود جبار صيد أمام الرب .

ويبدو أن كلمة ـ صيد ـ اسـتعملت بمعنى اقتناص الناس واصـطيادهم اذ أنه سرعان مـا استعملها الرسل المسيحيون بعد ذلك بنفس هذا المعنى وهو اصطياد الناس « اتبعونى لتصـيروا صيادى الناس » ، يقول القديس (٢) أوغسطين : « كانت الحرب فى نظر المحاربين الاولين ، صيدا للناس » كما عرف أرسطو ، الغزو بأنه نوع من أنواع الصيد .

---

(٢) تكوين ١٠ : ٨ ، ٩ .

(٣) مدينة الله ١٥ : ٤ .

ونظرا لان هذه المجموعة من الاقوام أو القبائل الكنعانية ، كانت شبه مبددة ، أى أنها لم تصل الى الدرجة من التوحد والالتئام الذى سـارت فيه حضارات الشعوب الزراعية ، أو حضارة دالات الانهار المتاخمة ، فى دلتا مصر والعراق وفارس والهند ، فهى لم تتخط حضارات المدن الدول وهو ما كانته الحضارة السومرية التى ترجع الى الالف الرابعة ق٠ م ٠ فى مدن لجش ونينوى والاركاء أو الورقاء ، أو ما اصبحته الحضارة المينوية الموكونية ، فى جزر الارخبيل أو البحر الايجى ، والتى توارثتها حضارات المدن الهلينيه الدول فى أثينا ، وآرجوس ، وطروادة ، فيما بعد٠ وعلى هذا فلقد كان لكل مدينة من هذه المدن الكنعانية الفينيقية ، تراثها الاسطورى المتميز والمتوحد — الى حد — فى ذات الوقت ٠

فمثلا أيدت الكشوف الحفرية فى جزيرة قرطاجنة بتونس ٠ انه كان للفينيقيين سكان مدينة صيدا ، اله يسمى صيدا ، وآخر يعرف بصيدون كان يكتب اسمه على نقود المدينة الدولة صيدا : «وهو من نسل صيدون بن اجبت «أى — الاجبتين» ، أو « المصريين » كما يقال ان صيدون هذا جاء من مصر الى فينيقيا أول ما جاء « وهزم القبائل الكنعانية التى تسمى بأرض فلسطين ، واستوطنها وبنى فيها مدينة صيدا » ٠

وفى احدى الاساطير المصرية القديمة ، التى جمعها المؤرخ الهلينى «ايسوب»(١) يبدو أن الالهين قدم وفينق ، قد جاءا أول ما جاءا من مدينة طيبه ــ ثيبه ــ المصرية ليتملكا على مدن صيدا وصور ، وأن أوزيريس خلال طوافه فى الارض ، أقام الاله بوصير ملكا متوجا على فينيقيا ٠

أما أساطير مدينةصور فتتركز حول الهها الحامى «بعل شميم الذى أقام بمدينة صور وصنع الاكواخ من القصب والخيزران والبردى، وجرت له مع أخيه عوس منازعات طويلة ٠ فعوس أو العيص ، كما يسميه العرب ، اول من اهتدى الى اتخاذ الثياب من جلود الحيوانات التى كان يقتنصها ويقتلها بيديه » ٠

وفى سلسلة النسب العبرى ، يتبدى عوس ، أو عيسو أو العيص ، كشقيق توءم ليعقوب ابن اسحاق ابن ابراهيم الخليل ٠ وهو الرجل الأشقر، كما تحدد أوصافه أساطيرهم ، المتعددة التى قد تتشابه أو تتطابق مع قصتنا المصرية المعروفة

---

(١) Aesop ، أهم مؤرخ ومصدر للاساطير والملاحم والبالاد الشعرية ، والحكايات الخرافية ، ويقال أنه كان عبدا افريقيا يعيش فى القرن السادس ق ٠ م ٠ ويرى البعض انه شخصية خرافية ، مثله مثل الشاعرين ، هومير ٠٠وهسيود٠

منذ الدولة الوسطى بقصة الاخوين ٠

وتحكى أساطير هذين الالهين الشقيقين التى عثر عليها بمدينة صور أن حريقا هائلا شب فى مدينة صور ، فأقام هذان الاخوان الهياكل لآلهتى الريح والنار ، وبعد ما مات هذان الاخوان أو ـ الكبيران ـ عبدهما أبناؤهما بعد ذلك ٠

وخلف عوس ابنه دامور ـ أى النخيل أو الثمر ـ ثم أعقبه هركل أو هرقل ، « أول من اخترع الأرجوان ، وقلد به عشترت » ، ويبدو أن هرقل هذا هو أول من غزا جزيرة قبرص وفتحها « وكان تحت امرته مقاتلون من الفينيقيين ، والعرب والافريقيين واليونان وغيرهم » ٠ وبعدها فتح بلاد اليونان وصقلية ، وقتل « فونا ملك ايطاليا الذى كان يذبح الغرباء ، ووهب لابنه « سرد » جزيرة سردينيا التى تسمت باسمه ٠ وغزا هرقل بلاد الغال ـ أى فرنسا ـ وأسبانيا ، حيث التقط تفاحات الذهب » وخلال صراعات هرقل الصورى هذا وفتوحاته، لدغه التنين ذو الرءوس السبعة ، فأشارت عليه آلهة دلفى بأن يدهن جروحه بورق شجرة تشبه التنين ذا الرءوس السبعة ، موجودة فى مدن الشرق ، وينسبه لهرقل الصورى انه اول من بنى مدينة عكا ٠

وذلك بعد ان عثر بها على النبات الذى شفيت به جروحه الدامية .

●●●

أما عما وصل الينا من تراث وأساطير مدينة دمشق أو ما كان يعرف قديما بسوريا العليا ، فجاء تراثا مخالفا ـ الى حد ما ـ لتراث العالم الكنعانى أو الفينيقى . ذلك لان سوريا كانت تنتمى الى القسم الشرقى ، أو البابلى الاشورى ، اى حضارة ما بين نهرى دجله والفرات بعامه فى أغلب أحقابها التاريخيه ، كذا تواتر اليها وساد تراث ومعتقدات التراث البابلى ، المتأثر بدوره بتراث العالم الآرى ، وبشكل أخص التراث الفارسى المجوسى ، أكثر من تأثرها بتراث القبائل الفينيقية الكنعانية فى ربوع الشام وفلسطين ، والواقع بدوره تحت النفوذ الاشعاعى للحضارة المصرية القديمة .

لذا لم يكن هناك اختلاف طويل بين ما وصل من آلهة ومعتقدات متوارثة من حضارات ممالك كلدة وأشور وبابل ونينوى فى العراق ، وهو التراث الحضارى بعامة الذى توارثته هذه الحضارات من سابقتها الحضارة السومرية اللاسامية ، وبين تراث مدينة دمشق .

فكان الاله هدد أو حداد ، هو اله سوريا ،

وكانت سميرنا التي اتخذت اسمها لقبا ــ فيما بعد ــ الملكة الالهه ســـميراميس ، التي حكمت وتملكت على بابل ٠

وهي الملكة التي خالطت الاساطير التاريخ في منشئها واختفائها على الســـواء ٠ وكان طائرها المقدس هـــو الحمامة ، ونسب لها تشـــييد مدينـــة بابل والحدائق المعلقة ، كما نسب اليها السوريون الاقبية التي عثر عـــلى بقاياها بالقـــرب من نهرى بيروت وابراهيـــم بلبنـــان ٠ كمـــا نسب اليها القديس صـــفرون الدمشقي انها هي سميراميس التي سورت مدينة دمشق ، ويقال ان سميراميس كانت ملكة ســـورية في منشئها ، ثم تملكت بعد ذلك « بلاد آشـــور وآســـيا الصـــغرى والجزيرة العربيـــة » ٠

ومعنى اسم الالهة سميرنا أي أم الحمام التي منها جاء اسم الملكة سميراميس ، أو كاهنة الحمـــام ، ذلك أنها حين ولدت من رحم أم سماوية كانت قد تركتها في الخـــلاء عقب ولادتها فتعهدها بالرعاية سرب من الحمـــام ، كما أنها حين ماتت ، تحولت الى حمامة ، ولهذا تتوحد ســـميراميس مع راشيل زوجة يعقوب ، وأم النبي يوسف ، التي تســـمت أيضا بالكاهنة الحمامة ٠

ولعل هذا يفسر لنا مدى احتفاء الأدب الشعبي

بالحمام والغناء له « ما تطخى يابندقية ورا الحيطة حمام » وحمام الحما وعبد العال في ملحمة السيد البدوى ، يتحول الى حمامة ٠

وعنـدما كبرت ســـميراميس أحبها وتزوجها حاكم سوريا ورئيس مجلس شيوخها ٠ ولما كانت سوريا جزءا من العالم الاشورى ، فقد رآها الملك نينوس ملك آشور وأحبها خـلال احـدى حروبه ببلاد بقطريانه ، حين كانت برفقة زوجها القائد حاكم سوريا ٠ وأحبها ملك آشور وهام بها لانها لعبت دورا حربيا هاما رجح كفة الآشوريين فى الحرب ، فطلب من زوجها حاكم سوريا التخلى له عنها ليتزوجها ملك آشور الشيخ ، على أن يهبه ابنته بدلا منها زوجة له ٠ ولما رفض زوجها القائد « اننى أرفض أن أصبح صهرا لملك آشور الذى يسلبنى زوجتى » ٠ هدده الملك بخرق عينيه ، فكان أن انتحر زوجها القائد ، وتزوجهـــا الملك نينوس ، وبعدها قتلته انتقاما لزوجها السابق ، واتسعت فتوحات سميراميس بعد ذلك فى فارس والهند وأرمنيا ، الى جانب كل شواطىء البحـر المتوسط ٠ وكما يقول اسطفان البيزنطى ، فان ســميراميس فتحت مصر ، وزارت الاله آمـــون ــ المشترى ــ لكي تستوضـــحه نبوءة عن نهاية حياتها ، فأنبأها آمون بأنها ستختفى مثل حمامة وتفوز من أكثر الشـــعوب الآسيوية بتقدير لا يمحى » ٠

وخلاصة القول، أن هذه الآلهة السورية سميرنا أو سميرام السورية هذه التي نسب لها المؤرخ سترابون ، أغلب خوارق غرب آسيا ، تتشابه الى حد كبير ، خاصة في تضمينه قتلها لعشاقها عقب الجماع ، مع الملكة البابلية سميراميس ٠

كما أن سميرام أو سميرنا السورية هذه ، تتطابق مع سير أساطير بلقيس ملكة سبأ الحميرية اليمنية ابنة هود أو الهدهاد بن شرحبيل ، وكذلك تشابه سيرها وحكاياتها ، مع ما دار حول «ميرنا» ملكة « الامازون » الليبيات ، بحسب روايات ديودوروس الصقلي ٠ « ان ميرنا ملكة الامازون الليبيات ، جندت جيشا قدره ثلاثون الفا من المشاة ـ الامازون ـ واثنا عشر ألفا خيالة ، وطافت أفريقيا ، وعندما مرت بمصر ، صادقت حور بن ايزيس ، الذى كان ملكا متوجا بها ، ثم زحفت من هنا على العرب وذبحتهم ذبحة عظيمة ، وعادت بطريق الشمال وغزت سوريا » ٠

أما ما تبقى من تراث وأساطير المدينة الدولة هليوبوليس ، أو بعلبك ، التي استمد اسمها من الاله الشمسي بعل ، فانه يؤكد أكثر فأكثر سيطرة التراث العقائدى والأسطورى المصرى ، على فينيقيا ، وبحسب ما يقول عالم الاساطير المقارنة

ماكروبولوس الذى اشاد به فريزر فى اكثر من مكان فى موســـوعته الفولكلورية الانثروبولجيـة ـ الغصن الدهبى ـ فأن أصل هذا الاله الشمس ، قد جـاء الى بعلبك من مصر « حمل من مصر ومن المدينة التى تسمى ايضا بهليوبوليس » وما عناه ماكروبوليس هو الاله الشمس المصرى رع الذى كان مركز عبـادته مدينـــه هليـــوبوليس ، أو عين شمس ٠

وكان الاله تيفون واحدا من الالهة الهامة التى ورد ذكرها فى الميثولوجى الفينيقى الكنعانى ٠ وتيفون اله مشـــئوم لا ســامى ، اذ أنه كان اله القبـــائل الرعـوية اللاســـامية ، الذين عرفوا بالهكسوس ٠

ويرى روبرت جريفز أحـد علماء الانثروبولجى ان الهكســــوس قبـائل رحل رعوية جاءوا من أرمينيا وما يجاورها ، فغزوا سوريا وفلسطين ، ثم دخلوا مصر حوالى عام ١٧٨٠ ق٠م٠ وأقلموا أنفسهم على الاستقرار فى دلتا النيل وشمال مصر عامة ٠ وجعل الهكسوس من الههم الحامى تيفون أخا لأوزوريس ، الا أن المصريين وحـدوا تيفون بست ، قاتل أوزوريس ومغتصب عرشه ٠ فكان تيفون الاســم المســتعار لست من ألد أعــداء

أوزوريس . ولقـــد رمز به المصريون ، الى عالم الظلام والشر ، اذ أنه عندما رأى قدر أصدقائه ، جدف منزعجا بكلام أشبه بنهيق الحمار ، وبسبب كلماته الخبيثة أصـبح شـيطانا ، وظل خصـما للابن حورس ، وسببا دائما لموته السـنوى أو الموسمى .

ويذكر بلوتارخ عن طرد الهكسوس من مصر ، بقهر أوزوريس لتيفون وطرده من مصر ، بل من غرب آسـيا عامة : « ان تيفون بعد أن غلب وفر من المعركة ركب حمارا ، ولم يصب الامان الا فى سابع يوم لهروبه » .

فلقد لعب هـــذا الاله الشرير الذى وحـــده السـاميون مع الحية « فتن » التى من صــدرها رضـــع تيفون « أدوارا متعددة لدى الشـعوب الآسيوية بشكل مجمل ، فتروى عنـــه الخرافات الفينيقية ، أنه كان تنينا هائلا » وعنــدما ضرب بالصـاعقة ضربات هائلة غاص فى قاع الارض ، فحفر مجـــارى الانهار ، وفجر الينابيع ، حتى فاضت مياهها فملأ مجاري الانهار، لذا سمى النهر طيفون » .

وفى حكاية أخرى ، نقلها سترابون عن المؤرخ السورى « بوصيدون » .. يقال أنهم « عثروا فى سهول مقره ، بفينيقيا على حيـــة ميتة ، شغلت

جثتها فدان أرض ، وأما ضخامتها فشيء عظيم ، فيمكن لفمها أن يبتلع حصـــانا براكبه ، « وفي حكاية فينيقية أخرى أن تيفون تسبب فى اشعال حريق هائل باشعاله غابات أرز لبنان ، حتى عم الحريق آسيا بأسرها ، ووصل الى الهند » ، وذلك بسبب ما كان ينفثه حلقه من لهيب ٠

وارتبطت بعلبك بالاحتفالات السنوية الماجنة ، بعيـد قيامة الاله الممزق أدونيس ، ثم ديونيوس خلال حـكم انيونان ، وأخـيرا باخوس بعد مجيء الرومان ، وكانت الاحتفالات تقـام فى السـهول الممتدة حـول بعلبك ، حيث الكروم والخمر التى « أسكرت الناس وثنيات السهول الخصيبة » ٠

ولقد وحد الفينيقيون بين النخلة التى اعتبرها الساميون بعامة شجرة الحياة فى جنـة عدن وبين الهة الاخصاب الجنسى والتعشير عشتروت أو عشار فالنخلة كانت شجرة الميلاد أو شجرة العائلة عند كل شعوب غرب آسيا ، فى مصر وبابل وفينيقيا والجزيرة العربية ، كما أن من اسمها جاءت تسمية فينيقيا أو فينيق أبو الفينيقيين ، بمعنى «الدامي» اذ أن شعوب البحر الابيض عامة ارتبطت وربطت بين عمليـات أخصـــاب النخيل ، أو ما يعرف بـ « الطـلوع » أو التلقيح التى بدونها لا تطرح

النخلة أو تثمر ، فهنـــاك علاقـــة بين النخيل ، وبين المـــوت ثم القيامـــــة أو توالى الـولادة والاستمرار ؟

وكانت النخلة هي شجرة عشترت المقدسة ، فمن ثمرها أو ـ تمرها ـ تسمت عشترت ، كمـا أن من اســم ثمرها جاء اســم الاله « دامور » أو « تامور » أو « تامير » أى التمر ، ووجدت آثار هــذا الاله فى جزر البحر المتوســط التى استعمرها الفينيقيون ، فكان يصك على النقود فى شكل أو شعار نخلة وافرة الثمار ٠

فلقد سمى اليـــونان فينيقيا والشرق الادنى القديم عامة ، ببلاد النخيل ، كما أن من اسم النخلة تسمت مدن « تدمر » فى كل من الشـــام واليمن والحجاز ، كذلك فقد عبد العرب نخلة نجران ، كالهة ، وكانوا يزينونها سنويا بأزياء نسائية (١) ملونة ، كما يقول جريفز ٠

ودخلت النخلة الميثولوجى الاغريقى ، فكل من الالهة ، أبولو ، ونبتون ، وذيلين ، ولدوا تحت نخلة ، وكذلك المسيح فى الميثولوجى السامى ٠

وتضيف أســاطير بعلبك ، ذات الاصول أو المنابع المصرية ، أن طائرا يسمى فينيق أو النخيل كان يحج الى هليـوبوليس ، أو بعلبك ، فيموت

---

(١) وهو تقليد ظل ساريا حتى عصر الفاطميين فى القاهرة الفاطمية ، بل والمملوكية ٠

بها ثم يعاود الحياة من جديد .. فيقال أن فينيق هـــذا هو بعينه الطائر المصرى الخرافى « بينو » وهو طائر خرافى لم يتشكك الاقدمون فى الايمان به ، فعبدوه فى هليــوبوليس كروح لأوزوريس ، كمـا ربطت عبـادته بعبادة رع ، وعد فى أغلب الاحيان صـــورة ثانيــة له ، ووحــده الفينيقيون بطائرهم فينقس ، الذى وصفه(١) هردوت بأنه كان يشبه العنقاء Lapwing ، وقال بأنه يظهر فى مصر مرة واحدة كل خمسمائة عام ، وما أن يولد ــ فينقس ــ فى أعماق الصحراء أو الجزيرة العربيـــة ، حتى يطير رأسا حاملا جثمان أبيه ، ليحط على مذبح معبد هليوبوليس ، وهناك تحرقه أعشــاب المر ، ويتم هـــذا فى احتفالات ضخمة هائلة تحشد لدفنه ، وتتم فى جو جنائزى كبير . ويعد موت هذا الطائر فينقس أو بينو أهم حادث لاهوتى فى كل مصر .

وفى احــدى الحــكايات التى أوردها القديس هيرونيم عن هـــذا الطائر الذى لقبه الفينيقيون باسمهم فينيق « ان هذا الطائر يعيش فى الهند لمدة خمسين عاما ، ثم يجىء الى فينيقيا ، ليجمع طيوب لبنان ، ويصـــنع منها عشا فيغطى كاهن معبد هليوبوليس ، هيكل الاسرار ، الذى يلقى

---

(١) I — Larousse p. 46

عليه فينيق بطيوبه الممزوجة بالعنبر ، لـــكن » ومع شروق الشـــمس ، يخفق فينيق بجناحيه ، فيلتهب العنبر بواسطة أشعة الشـــمس وتشتعل الطيوب فتحرق فينيق ، لكنهم فى اليوم التالى ، يرون دودة متولدة من رماده ، وفى اليـــوم الذى يليه ، ينبت للدودة أجنحة ، وفى اليـــوم الثالث يطير ــ فينيق ــ عائدا الى وطنه ٠

وفى الاســـــاطير العبرية : « أن فينيق طـــائر يعيش ألف سنة وبعد انتهائها ينبعث فى عشـــه لهيب فيحرقه ، لكن تبقى فيه بيضة يعاود منها فينيق الحياة ، وأن هذه القيامة أعطيت لفينيق من عند الله لانه كان الطائر الوحيد الذى استنكر أكل حواء من الثمرة المحرمة » ٠

وواضح أنها هى بعينها فكرة تقديس الجعران فى اللاهوت المصرى القديم ، من حيث المغزى المتمثل فى الموت ومعاودة القيامة ٠

وبحسب تفسير د٠٠ مرجريت مرى ، فان الجانب الصلد الذى كان يتبقى من الجعران الميت ٠ يصبح بعد ذلك وعاء يبيض فيه جعران جديد أى أن من الموت تنبت الحياة ٠٠

ولقد لعبت هذه الشعيرة الفينيقية ذات الاصل المصرى ، أهم أدوارها بعـــد ذلك فيمـــا يتصـــل بمعتقدات الموت والفناء ، ثم معاودة الحيـــاة أو

الولادة ، أو القيـامة ، فلقد امتدت مناقشـات لاهوتية لا حصر لها حول هـذه الفكرة الزراعية عن الموت والقيامة وموجزها البذرة التي تفسد لتنبت وتزهر • واتسعت هذه المناقشات والمجادلات في القرون السابقة على ظهور المسيحية بل وعقبها ، واشترك فيها من المؤرخين والمفكرين ــ فيما قبل المسيحية ــ بليني وسولون الابدري وفيلستراث ، ومن اللاهوتيين المسيحيين ، اقليم الاسـكندري وأوريجيان ، وأوساب ، والقديس جريجور النزنزيري والقديس كيرلس الاورشليمي والقديس هيرونيم ، والكثيرون غيرهم •

ويبدو أن احتفالات موت فينيق وقيامته الهائلة كانت تقام بمدينة بعلبك ، لمشاهدة شعائر موت واحتراق ذلك الطائر فينيق ، ثم قيامته المظفرة « حيث كان يرتقى الاعشـاب العطرية ، ارتقاءه عرش الخلود ، فتحرقه أشعة الشمس على مرأى من الملوك والعظماء ، والكبراء والكهنة والاحبار ، وعدد لا يحصى من الشعوب المتقاطرة ، لمشاهدته من جميع جهات آسيا ، ولا يلبث قليـلا حتى يحيا ثانيـة من بين رماده ، ويطير مجددا شبابه السماوى الخالد » •

كما يبدو أن ثمة علاقة غريبة ، لم يتنبه اليها

أحد بالدرجة الكافيــة وهى العلاقة بين الاسم فينيق أبو الفينيقيين ، وبين نبـاته أو شـعاره المقدس أو طوطمه ، الذى هو النخلة ، وكذلك بين معتقدات الموت والفناء ، ثم معاودة البعث والقيامة التى كان يمثل أطوارها ذلك الطـائر المقــدس المســمى فينيق •

والذى أود أن أتلمسه وأشير اليه ، هو أن من ثمر النخلة ، أو بلحها كان سكان الشرق الادنى القديم يصنعون خمرهم المعروف بالجعة أو العرقى، وكانوا يشربون ويسكرون ، قرى بأسرها تشرب وتســكر وتنام كلما خيم الليل « وذلك مخافة الانزلاق والتفكير فى معميـات الحيـــاة والموت والفناء » •

وهى واحدة من لمســات أبو التاريخ هردوت وتفسيراته التى دونها فى كتبه التسعة خلال طوافه بشعوب شرقنا الادنى القديم الغابر •

وفى ملاحظة أخرى تتصــل بعلاقة ـ عرقى ـ البلح بالموت ، يضـــيف هردوت : « ان المصريين كانوا (١) يخرجون أحشاء الميت كلها ، فينظفونها ويغسلونها بنبيذ التمر » •

(هردوت يتحدث عن مصر)، ص ١٩٥ •

ولقد تداخلت الممالك أو المدن الدول الكنعانية الفينيقية ، مع مايتاخمها ويجاورها من شعوب وقبائل سامية ، أى الآرامية المنحدرة من نسل آرام أكبر أبناء سام ، فى ممالك .. آرام دمشق « التى يقال أن مؤسسها هو عوص بكر آدم ، وممالك صوبه وحماه وحمص ورحوب فى سهل البقاع وكذلك جشور ، ويطور ، نسبة الى يطور بن اسماعيل بن ابراهيم من هاجر .

فالكنعانيون : « ملعونو العهد القديم » جابوا البحار ونشروا تجارتهم الواسعة ، على عكس مافعله الآراميون سكان الجبال الذين خافوا ركوب البحر واقتحامه وعدوه محرما أو تابو ، كالمصريين القدماء .

ولقد واصل اليونان والرومان بعد ذلك اتهام هؤلاء الكنعانيين بالخسة والوضاعة ، مثلما فعل جيرانهم الساميون من العرب واليهود ، فقال عنهم شيشرون : « انهم ولدوا للعبودية » ، وكذلك نظر اليهم سقراط . وكان من بين أمثلتهم : « سورى ضد فينيقى » بمعنى خبيث ضد خبيث .

والواقع أن الامبراطوريتين الاغريقية والرومانية استفادت أشد الاستفادة من تمزق هذه الشعوب

القبليه العرقية المتنافرة فى الشام وفلسطين من فينيقيين وآراميين وسريان وعبرانيين وأنباط وعرب •

الا أن الشيء الهام الذى خلفه النسل أو الرهط - اللعين بحسب اعتقاد القدماء - هو اللغة الكنعانية ، التى منها جاءت العبرية القديمة لغة الكتاب المقدس ، والتى لم تكن الابجدية الفينيقية سوى احدى أفرعها ، والابجدية الفينيقية : « هى ما أصبحت اللغة اليونانية ، التى كتب بها اليونانيون منذ القرن الثامن ق • م كما يقول توينبى » •

ولقد حفظت هذه اللغة الكنعانية العريقة ، بعد الفتح العربى « فى(١) لغة الطقوس الدينية المسيحية عند الموارنة والسريان فى لبنان » •

ولقد خلفت هذه الشعوب السامية ، اسماء اسلافها وأسماءها على كل مكان وطئته •

وبحسب قول عبيد بن شريه الجرهمى ، فان قارة افريقيا سميت هكذا ، نسبة الى الملك

1 — Larousse. p. 498

الحميرى « أفريقيس بن آبرهه ، الذى يقال انه عندما غزا المغرب ـ شمال افريقيا ـ متجها اليه من ارض البربر » فرأى بلادا كثيرة الخير ، قليلة الاهل ، فنقل البربر من بلادهم فلسطين الى مصر فلما بلغ أفريقيس حيث بلغ من فتوحات أمر ببناء مدينة بتلك الارض من افريقيا ، فبنيت مدينتها وانما سميت باسم أفريقيس ، وكذلك تسميها بربر اليوم ، فأما العرب فتقول افريقية » (١) ٠

واسم الشام ، (٢) نسبة الى سام ابن نوح ، وأصله فى العبرية والسريانية « شام » أو «شم» كما اطلق اسم اخر أبناء سام ، وهو آرام ، على معظم لبنان وسورية وما بين النهرين ، أى آرام النهرين ، كما انهم اطلقوا على مصر حام ، وأما ابنه كنعان ، فقد سموا به المنطقة الممتدة من الاردن الى البحر الابيض ، كما انهم أطلقوه على لبنان ، وبشكل خاص على الريف الفينيقى الزاخر بالكنعانيين ٠ كما ان تسمية اليمن ، تتصل بيعرب بن قحطان ، الذى كناه اباه بأيمن « ان أيمن يايعرب » وكان العرب يعنون باسم اليمن، كل ما هو واقع على يمين القبلة ، ولذلك شملت تسمية بلاد اليمن الشام بأسره ٠

كما تنسب تسمية أرمينيا ـ بالاتحاد

---

(١) أبو الفدا ، ص ١٠٢ ٠ (٢) تكوين ١٠ : ٢٢ ٠

السوفيتي اليوم الى هجرات آراميه يقال انها وقعت فى القرن السابع قبل الميلاد الى أرمينيا التى كانت تعرف قبلا بأرض أراراط .

كما ان الميثولوجيين الساميين سموا كل ذوى البشرة السوداء كوشيين (١) ، وذلك نسبة الى حام ـ ابن اللعنة ـ الذى تحمل أبناؤه فيما بعد وزر أو خطايا ابيهم حام ، حين عصى حام أباه نوح، وجامع امرأته خلال حجهم للبيت ، فلعنه نوح « اللهم سود وجهه ووجه من عصى ووطىء امرأته » وعندما ولدت امرأة حام غلاما ، جاء اسود اللون، وسموه كوشا ، وولد لكوش الحبشة ابن كوش ، أما شقيقه الثانى الذى لحقته لعنة ابيه أيضا ، وهو « ماريع بن حام » ، فقد ولد ثلاثة أولاد أو أجناس ، هم كنعان بن ماريع ، وبربر بن ماريع ، والنوبة بن ماريع .

وكذلك فقد خلفوا حضاراتهم على أعلى قمم (٢) جبال لبنان وفلسطين ، مثل جبال السامرية والعربية وجلعاد واليهودية ، الى جانب جبال شعيب صاحب مدين فى الشام وسيناء ، وشعيب بن حضور بن آلوت نبى القحطانيين فى اليمن ، وأيضا جبل ضهر فى اليمن الذى وحدوه بالنبى

---

(١) التيجان ـ وهب بن منبه ص٢٤ ، ٢٥ .

(٢) تاريخ لبنان ـ الاب مارتين اليسوعى ٨٩ .

هود : « لن نطيع الدهر هودا » ، وجبل حرمون ، أو الجبل الشرقى فى لبنان أى جبل الحرمان سمى كذلك ، بحسب تفسير القديس « هيرونيم » الذى فسر حرمون أى بالموت حدادا على هابيل ، ذلك لان جنوبى هذا الجبل ، يطلق عليه اسم هابيل •

ولقد أورد زكريا القزوينى ، حكاية غريبة بسهل عكا فى اطراف لبنان ، فقال ان « بها عين البقر ، وهى بالقرب من عكا ، يزورها المسلمون واليهود والنصارى ، ويعتقدون أن البقر الذى ظهر لادم فحرث عليه ، لاول مرة ، أخرج من هذه العين » ، وهى نفس العين التى سماها الفرنسيون بعد ذلك فى القرن السابع عشر ب : « عين العذراء مريم » •

ونهر القاسمية ، كان يسمى نهر الليطانى أو الممنوع أو الملعون أو الحرام ، وكذلك نهر قديشا أو المقدس الذين سموه « ليطا » وفسروه بالشرير ، أما نهر الاولى ، أى نهر المدينة الاولى ، فقد سماه العرب قديمابنهر الفراديس ، وكذلكفقد استبدل العرب نهر أدونيس ، باسم ابراهيم ، ويشير « رينان » الى وجود علاقة بين ابراهيم وايل اله جبيل ، بل ان العرب خلطوا بين ابراهيم وبين الاله ـ بل ـ اله الكنعانيين •

واستنادا الى مايقوله أحد قدامى (١) الرحالة الفرس ، فان احد سهول بيت المقدس وهو سهل « الساهرة » ، اعتقد العامة فى انه سيكون ساحة القيامة والحشر : « ولهذا يحضر اليه خلق كثيرون من أطراف العالم ، حتى يموتوا فاذا جاء وعد الله • كانوا بأرض الميعاد » ، كما انهم اعتقدوا فى ان هذا السهل ، هو « بيت فرعون » وسموه « وادى جهنم » •

ومن اماكن اليمن المشئومة جبال ختا أو خياف ، والجبل الاشيب سيد جبال النار ، وقطب اليمن ، فيقال ان ذلك الجبل ، يظهر عليه أهل النار والخراب ، وتعوى فيه الذئاب ، كما ان من بين الاماكن الملعونة نجران وصعده ، وبكلى ، ويروى عنها الكثير من الخرافات ، وأما جبالها المقدسة فهى جبال حضور ، وحنين ، ورأس جبل على ، ورأس صبر وتعكر •• الخ •

وباليمن وادى ، يعرف بوادى عشار « كثير الاخصاب » نسبة الى الالهة ايشار أو عشتروت ، كما ان اليمنيين نسبوا أقدم قصور اليمن ، وهو قصر «غمدان » الى سام بن نوح الذى « ابتدأ بناءه واحتفر بئره » وتنسب حوله الخرافات ، ان طائرا

---

(١) سفر نامه ـ ناصر خسرونامة •

اختطف المقرانه وطار بها ، وتبعه سام ، لينظر أين أوقعها الطائر ، ثم اقام البناء » •

كما اعتبرت مدن الشام وقراها ، مسرحاً لما لحق الخطيئة الاولى •• فيقال « ان (١) آدم لما اخرجه الله من الجنة (نعيم عدن) ، سكن جبل حرمون ـ جبل الشيخ ـ وان ولديه ـ قابيل وهابيل ـ أقاما طويلا شرقى الفردوس فى سهل البقاع ، ويستدل على صحة هذا التقليد اليوم من قبور هابيل وقابيل وشيت المقامة فى المحل المشار اليه » • ويقال ان تسمية دمشق ، نسبة الى اراقة دم قابيل لاخيه هابيل ، ويقول القديس « هيرونيم » « ان معنى دمشق شراب الدم » ، كما يقال انه من أرض دمشق هذه قيل لهابيل « والان فملعون أنت من الارض التى فتحت فاها لتقبل دماء اخيك من يدك » •

ويقال ان هذا التقليد ، كان منتشرا بكثرة فى أيام الحروب الصليبية كما يقال ان بانى دمشق هو « اليعازر » خادم النبى ابراهيم فى نفس الحقل الذى قتل فيه قابيل أخاه هابيل •

أما دمشق فهى أرض « آدم » التى منها جاءت

---

(١) البطريك اسطفان الدويهى فى تاريخه •

تسمية آدم ، بمعنى اديم الأرض أو القدم ، ويبدو أن تسمية أدوم كانت تشمل جزءا من الأردن. .
وهي الارض التى نزلها عيسو أو العيص بن اسحاق . (١) .

فيبدو ان أدوم كانث تشمل أيضا جزءا من الاردن ، ويؤكد هذا الكشوف الحفرية التى توصلت اليها البعثة التى اعلنت بعض نتائج اكتشافاتها فى يوليو ١٩٧٤ .

وينتشر بين سكان جبل قاسيون ، شمال دمشق ، اعتقاد بأن جريمة « القتل الاولى وقعت فى أعلى قمم الجبل » ، وينسب القزوينى لاحدى صخور دمشق الكبيرة ، انها كانت المكان الذى قدما عليه قربانهما « حين تقبل من صاحب الزرع ، ولم يتقبل من صاحب الرعى » وهناك حجر عليه مثل آثار الدم ، اعتقد الدمشقيون القدماء فى أنه الحجر الذى هشم عليه الاخ أخاه ». لذا سميت المغارة المجاورة لهذا الحجر « مغارة الدم » .
وبينما يرى المسلمون أن الجريمة وقعت داخل

---

(١) المصدر السابق فى تفسير نبوة حزقيال (٨ف٢٧:٨)

أغوار (١) صحراء شـديدة الجدب ، ومنذ ذلك اليوم لم يقرب الندى جدب هذه الصحراء » .

يرى اليهود ان الجريمة وقعت فى احدى قرى جبل قاسيون ، وهى قرية بسيمه .

ولقد وحد الاقدمون بين قابيل والشـيطان « أشمودى » الذى ينسب له تشييد مدينة بعلبك، التى اعتبروها أول مدينة فى العالم ، اذ ان قابيل ابن آدم عنـدما اعتراه الارتعاش أمر ببنائها ، ولقبها باسم ابنه أخنوخ ـ النبى ادريس ـ وأسكن فيها الجبابرة والمهترجية ، ولكثرة فواحشهم ارسل الله عليهم طوفان الماء « أو طوفان نوح » .

ويسمى وادى البقاع بسوريا بسهل نوح ، وبه قبر نوح بالقـرب من ـ زحلـة ، وان ملكا هـو الملك الظاهر ـ عام ١٢٥٨ م ـ اعاد بنـاء القبر فجعله « واحدا وثلاثين مترا » .

وبالنسـبة لابراهيم ، فان فى مدينة القدس صخرة ، يقال أن « عليها آثار سبع أقدام » (٢) وسمعت ان ابراهيم كان هناك ، وكان اسماعيل طفلا فمشى عليها ، وهذه هى آثار أقدامه : «ويرى البعض ان قبر نمرود الجبار الذى حاربه ابراهيم،

---

(١) تبعد ٩ كيلو مترات عن دمشق .

(٢) خسرونامه ص ٦٤ .

موجود بجبل لبنان » الا أن هناك من يقول أن فى قرية « ارواد » أربعة قبور لأربعة من أبناء كنعان ·
ويعتقد سكان قرية كفر ناحور بلبنان ، أن قبر كنعان موجود على احدى الصخور الموجودة هناك كما يقال ان النمرود بن كنعان هو بانى قلعة بعلبك ، وفى بعلبك بقايا آثار قصر سليمان ودير الياس ، وجبل سعيد الذى على قمته أقدم ابراهيم على ذبح ابنه وبكره اسماعيل ·
وفى مدينه عكا ، توجد قبور «عك» بانى المدينة وعيش وشمعون وذى الكفل ، وهود ، وعزير ، وشعيب ، وابنته زوجة النبى موسى · وفى قرية اربل ، أربعة قبور لاربعة من أبناء يعقوب ، وكذلك غار ، وجد به قبر أم موسى ، ويوشع بن نون بالاضافة الى سبعين نبيا ·
أما فى جنوب بحيرة طبرية فيوجد بحر لوط ، فيقال ان مدينة لوط (١) كانت تقع على شاطئه ·
موجز القول ان الأقوام السامية قد خلفت اساطيرها ومعتقداتها الخرافية فى عصور الظلمات أو عصور ما قبل العالم على آثارها ومنشآتها ومعالمها الطبيعية بشكل غاية فى الافراط ·

---

(١) سدوم وعموره . مدينتا البحر الميت وهو ماشارت اليه واكدته كشوف او نصوص البحر الميت الهامة ·

الفصل الرابع

دور اليهود فى تدوين هذا التراث

لم ولن تكون الميثولوجيـــا العبرية والتراث اليهودى عامة ، حكرا وقفا عــلى اليهود ، ذلك انها الجانب التسجيلى المبكر لمجرى الاحــداث المبكرة لتاريخ الشرق الادنى القديم ، بهجــراته ومنازعاته ولاهــوته ومعتقداته ونكباته ، وادق خصائص كل رهط وقبيلة ومدينة دولة وشعب ، لاقوام الشعوب السامية او غــير السامية التى تنازعت الوجود على ارض هذا الجزء من العالم ، وهــو شرقنا الادنى الموغــل فى القدم والعراقة والتجدد الدائم .

ودور اليهود فى هذا التراث ، لايعدو انهم كانوا مدونيه المبكرين وحفظته من الضياع ، ومن خلال دورهم فيه ، مع عدم تناسى موقفهم الحلقى القبلى المغلق ، الذى ابرز دورهم كقبائل عنصرية فاشية متفوقة « من الاولياء » كما يدعون ، وهى مرحلة حتمت عليهم تلقى مجرى احداث العالم الخارجى من حولهم ، من خلالهم هم بالذات .

الا ان مايجدر تأكيده ، هو ان التراث العبرى ملك مشاع مشترك لكافة شعوب الشرق الأدنى نظرا لكونه وثيقة مدونة مبكرة لها أهميتهــا فى التعريف بماضى هذه الاقوام مجتمعة ، تضاف الى بقية الوثائق ، من حفرية أو تاريخية ونصــية

وشفاهية ، فى القاء المزيد من الضــــوء على ذلك الماضى ، بهدف اعادة انارة وجلاء مستقبله . فما احوجنا اليوم الى المعرفة شبه العلمية لماضينـــا ومكوناتنا الاولى ، بالقدر الذى يسهم فى ايضاح طريق المستقبل .

لذا فمن الصعب ، بل المستحيل ، ان يتكامل تاريخ حضارى شامل متكامل لشرقنا القـــديم ، بمعزل عــن المدونات العبرية ، من مقدســة وغير مقدسة ومحظورة أو ممنوعة وهكذا . من ذلـك التوراة أو العهـد القديم والتوراة الشـــفاهية أى التلمودان البابلى العراقى والأورشـــليمى الفلسطينى والتلمود الحجازى ، والاسفار المحظورة « الابوكريفا » .

وليس هذا برأى جديد ، اذ ان كثيرا ماترفض حركة الاساطير والفولكلور العالمية اعتبار التراث اليهودى العبرى بعامـــة ، تراثا متميزا مكتمل الشخصية ، عـــلى اعتبار أنه « فى مجمله ينتمى لتراث البلدان المتاخمة » ، أى أن هناك شرعيـــة فى ملكيتنا أيضا لهذا التراث البالغ الاهميـــة . الذى ينتمى فى مجمله لتراث البلدان المتاخمـــة أو المجاورة ، فى فلسطين والشام ، ومصر والعراق واليمن .

وكما يقول كامل زهيرى فان اليهود شعب أو قوم ، تكمن مأساتهم فى انهم يمتلكون تاريخا

دون جغرافيا ، بمعنى وطن ، أو قطعـــة أرض ٠ فهـم كجنس تراجيـــدى غـــريب ، واصــــل طوافه المتصل الدائم ، من مجتمع الى آخر ومـــن قارة لاخرى على طول تاريخهم ـ سواء القديم أو الحديث ـ مما اكســبهم لفولكلــور ومعتقـــدات وثقافات تلك الشعوب التى عاشروها واتصــلوا بها ، منذ خروج القبائل الرعوية العبرية من أور الكلدانيين فى دلتا العراق مع انتهاء الالف الثالثة قبل الميلاد ، ونزولهم أول أمرهم جيرانا فى بادية الشام ، ثم دخولهم أو مجيئهم الى مصر ، والاقامة فيها قرابة قرنين مـــن الزمـــان ، ثم نزولهم الى فلسطين أو ارض كنعان ، واتصـــالاتهم وتعاملهم مع الكنعانيين والاموريين ، وامتصاصـــــهم الدائم لتراث هذه الاقوام وغيرها ٠

وتجىء بعد ذلك عصور اتصـــالاتهم بالبابليين والآشــــــوريين والفرس منذ الالف الأولى قبــل الميلاد ، فمن بابل وآشور أخذوا اغلب معتقداتهم عن السحر والحيوانات الخرافية الســحرية التى تتبدى بكثرة شديدة فى رؤى دانيـــــال ومراثى أرميا ، وحزقيال ٠

ومن الفــــــرس جاءتهم كـــل تصـــــوراتهم ومعتقداتهم عن الملائكة والشـــياطين والجـــن ، بمعالمها واسمائها الفارسية المجوسية ، الى جانب الثنائية الفارسية عن الخــير والشر ، أو الموجب

والسالب ، والتي تميز بها هـــذا التراث الآرى المجوسي وسط حضارات العالم القـــديم عامـة والتراث السامى بشكل أخص •

ولقد جاءت الكشوف السومرية اللاسامية فى العراق ، فاوضحت الكثير من الغموض بالنسبـه للتراث السامى بشكل عام ، والتراث العبـــرى بشكل أخص • فلقد أوضـحت هـذه الكشـوف السومرية ـ الالف الرابعة قبل الميلاد ـ عن حقيقة « اصل التوارة ذاتها ومنشئها » ، وان هذه المجموعة من المآثر العظيمة لم تجيء الى الوجود كالازهـار الصناعية ، وهى كاملة النمو ، بمعنى انهــــا تنتشر انتشـــارا واسـع المدى فى تراث الاقوام المجاورة •

وليس بغريب ان تراث العبريين هو على وجـه التقريب تراث وحضـــارة اولئك الســـومريين اللا ســـاميين وصـــل اليهـود عن طـريق الوساطة الكنعانيـة ، مثلهم فى هـذا مثل بقيـة الاقوام والجماعات السامية ، وذلك عقب انتقال ذلك التراث السومرى الى الورثة المباشرين ، وهم الكلدانيون والبابليون والآشوريون والحيثيـون والكنعانيون •

وعن الكنعانيين الذين ســـبقوا العبريين فى استيطان فلسـطين ، وبعض مـدن الســـاحل الفينيقى ، سرى الى الوجــــود تراث تلـك

الحضارة اللاسامية المندثرة مثلما توارث العرب ـ خاصة القحطانيين سكان اليمن والجنوب العربي ـ حضارات لاحقيهم من القبائل العربية المندثرة التي ترجع الى ما قبل الالف الثالثة قبل الميلاد ، وهم قبائل عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق وغيرهم .

ولقد لعبت الحضارة الكنعانية ، وطليعتها البحرية فينيقيا ـ نظرا لاقتحامهما المبكر للبحرين الابيض والاحمر ـ دور الوسيط في حمل تراثي مصر وبابل ، والابحار به ونشره على طول سواحل البحر المتوسط .

لذا يرى البعض ان كلا التراثين العقائديين العبري اليهودي والفارسي المجوسي بالاضافة الى التراثين الهليني والمسيحي جاء جميعه تحت التأثير المباشر الكنعاني ، السوري أو الاشوري فيما بعد .

فيبدو أن خليطا عريضا من أجناس واقوام شعوب البحر المتوسط قد استوطنوا المدن السورية على مدى تاريخها ، مما ساعد على اثراء التراث السوري الكنعاني .

ويذكر جوستاف لوبون (١) ان سكان مدن

---

(١) حضارة العرب ـ جوستاف لوبون ص ٧٩ .

سورية وقراها « مزيج من المصريين والفينيقيين واليهود والبابليين والفرس والافارقه والرومان والعرب والمغول والشركس والصليبيين والترك وغيرهم من الامم التى استولت بالتتابع على سورية » ٠

ويرى توينبى (١) ، بالنسبة لليهود ، ان شعب مملكتي « اسرائيل ويهوذا قد رفع نفسه مكانا ساميا ، ابان فترة من تاريخه الذى بدأ فى طفولة الحضارة السورية وبلغ الاوج فى عصر الانبياء » ٠

ويرجع السبب فى تركيزى على الحضارات أو المنابع الام أو حضارات الجيل الاول في دلتا العراق ، حيث الحضارة السومرية الاكادية ، وفي دلتا وادى النيل حيث الحضارة المصرية الفرعونية الى محاولة تعرف النبتة الاولى لكل موتيف اسطورى أو فولكلورى وامكانية تتبعه ، وذلك نظرا لتعدد المصادر وتنوعها بالنسبة للفكرة أو الموتيف الواحد ، مما قد يوقع الباحث في الخطأ وفقدان الطريق ٠ واعادة هدم ما اوشك فى بدئه ٠ وهو ماأصبح تقليدا ساريا بالنسبة لدارس تراث قلب العالم القديم ٠

---

(١) مختصر دراسة التاريخ ـ توينبى ج ٢ ص ٥٩ ٠

فما من اضافة كشفية أثرية اركيولوجية أو نصية ، أو شفاهية ، لم تسهم فى اعادة تكامل جزئيات هذا التراث الهائل ، مما يترتب عليه دوام الهدم المستهدف اصلا ـ لتوالى البناء واستقامته .

فيمكن اعتبار الدراسات الفولكلورية ـ محتوية أو متضمنة الاساطير ـ أحد المركبات الهامة اليوم ، فى اعادة بناء تاريخ الجسد الحضارى ، لاى شعب أو مجموعة من الشعوب .

وكما سبق ان أوضحنا ، فان مثل هذه الدراسات قد قطعت شوطا كبيرا ، خاصة فيما يتصل بالتصنيف ، أى تجميع وتراكم عينات الفكرة أو المقولة الواحدة ، ثم بعد ذلك اعادة تعرف تاريخ حياة كل فكرة على حدة ، والاخذ بمبدأ ان أى فكرة أو مقولة أو شعيرة ، تصبح بلا قيمة ، مالم يتحدد أصلها وفصلها ، وما طرأ عليها من تغيرات واضافات ، من عصر لعصر .

وبمعنى اخر فان فكرة خلق حواء من ضلع الرجل ـ مثلا ـ ترد منحدرة من التراث السومرى اللاسامى ، متبدية فى التراث السامى عند الورثة البابليين والحيثيين ، منتقلة الى الكنعانيين الفينيقيين ، متبدية فى أسطورة الاله « موت » !

فكان ان نقلها العبريون الى اسطورة الخلق أو سفر التكوين ، وكذلك طوف بها الكنعانيون.

وطليعتهم البحارة الفينيقيون الى الحضارة الايجية ومنها دخلت هـذه الجزئيـة الى التراث الهلينى اليوناني ، ثم الرومانى فيما بعد ثم اللاتينى فى العهد المتأخر ٠

وبشكل مجمل يمكن القول بان أسفار التكوين الاحد عشر الاولى ، تنتمى بكاملها الى الميثولوجيا الكنعانية المتوارثة مباشرة من الحيثيين والبابليين ٠

ومن هـــذه الافكار ، خلق العالم ، وتوحـــد الخالق بالماء ، وأقدامه على خلق العالم عن طـريق رسله الثلاثة ، تم فكرة خلق الانسان الاول «يوم خلق الله الانسان ، على شبه الله عمله » (١) وهو ما تتميز به اساطير الخلق السامية ، عـلى تراث العالم اجمع ، ومنها خلق المرأة من ضلع الرجل ، وتوحدها بالحية التى توحدت بدورها بالشيطان ، ثم الخطيئة الاولى ، وكذلك تمشى الاله فى الجنـــة عند هبوب الريح (٢) « كقرين للريح ، وعرى آدم عقب الخطيئة ٠ وعقـاب الاله للخطاة الثلاثة آدم وحواء والحية ، الذين حســـدهم ابليس أو الشر وأضلهم فكان ان طردوا من الجنة الى ـ الجحيم ـ

---

(١) تكوين ٥ ٠

(٢) تكوين ٣ ٠

الارض ، وكان ان دخل الموت الى العالم « فان (١)
الله خلق الانسان خلدا ، وصنعة على صورة
ذاته ، لكن بحسد ابليس دخل الموت الى العالم »
وماتوالى بعد هذا من عقاب للمرأة مثل ادماء حواء
الشهرى (الحيض) وتسيد الرجل عليها (٢) ،
« تكثيرا أكثر أتعاب حملك وبالوجع تلدين أولادا
والى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك » •

وكان ان قهرت المرأة وسلب سلطانها ، خلال
توالى هذا التراث الابوى البطرقى الذى سيد أول
ماسيد الرجل الذكر على المرأة الانثى ، والحق بها
وزر الخطيئة الاولى (٣) ، « فمن المرأة ابتدأت
الخطيئة وبسببها نموت جميعا » •

ثم يعقب هذا سلسلة الانساب المفقودة ، أو
المفتقدة ، لحين مولد الجبابرة أو العماليق أو
النماردة ، ملوك بابل والشام • فمن المعتقد أن
أولئك الجبابرة البائدين أو المندحرين ، هم بذاتهم
الذين حاربهم العرب والعبريون على السواء •

ويذكر ابن خلدون عن الجبابرة « وسطروا عن

---

1 — Apocrypha — w.

(٢) تكوين ٣ •

(٣) يشوع بن سيراخ فصل ٢٥ •

عاد وثمود والعمالقة فى ذلك اخبارا عريقـــة فى الكذب من اغربها مايحكون عن عوج بن عناق رجل من العمالقة الذين حاربهم بنو اسرائيل فى الشام فزعموا انه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه فى الشمس » ٠

ونسجوا حولهم الخرافات والاساطير ومنهـــا شخصية « عوج بن عناق » وهو شخصية خرافية، فيقـــال انه المخلوق الوحيـــد الذى لم يهلكـــه الطوفان ، كما يقال بان قاتله هو النبى موسى ٠ ويذكر فى التوراة مع الجبابرة تحت اسم « عوج ملك باشـــان » ولاســتكمال التعرف عـلى هـذه الشخصية الاسطورية ، يمكن الرجوع الى دراسة الاستاذ فوزى العنتيل الموجزة الوافية فى كتابه القيم « الفلولكلور ماهو ؟ » (١)

كما يقال أن أولئك الجبـــابرة ، هم الـــذين استأصلهم وابادهم العمونيـــون والموآبيـــون ، سكان الاردن ، المنحدرون من نسل لوط ، والذين سبقوا ـ الاسرائيليين بالتحديد ـ فى استيطان شرق الاردن ٠

---

(١) الفولكلور ما هو ـ من ص ١٩١ حتى ٢١١ ٠

ويضيف الجاحظ أن قبائل وملوك جرهم (١) ـ وهم من العرب البائدة ـ جاءت « من نتاج مابين الملائكة وبنات آدم ، فكان الملك من الملائكة ، اذا عصى ربه فى السماء اهبطه الى الارض فى صورة رجل ، كما صنع بهاروت وماروت ، وماكان من شأنهما وشأن الزهرة ـ اناهيد ـ فحين هبط جرهم فى صورة الرجل تزوج أم جرهم فولدت له جرهما » ٠

وهم المنحدرون من نسل شيت ابن آدم « والى شيث تنتهى انساب جميع ابناء آدم » ٠

وتزعم الملل والنحل ، المعروفة « بالصابئة » انه ولد لشيث ابن اخر اسمه صابىء بن شيث واليه تنسب الصابئة ، وشيت يلقب عند هؤلاء الصابئة « عاد يموت » ٠ وعادهذا ، يمكن ان يكون رأس قوم عاد ، الذين ارسل لهم الله هودا ، وكانوا اهل اصنام ثلاثة ٠ وكان عاد وثمود جبارين طوال القامات ٠ ومما يلفت النظر ان نحل الصابئين هذه « (٢) كانوا مكذبين لنبوة ابراهيم ومن دونه ، وكانوا مصدقين بنبوة ادريس » الذى هو ايضا احدى صور شيت ابن آدم ، أول من اخترع الكتابه ٠

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ جزء ١٨٧ ٠

(٢) ابن حزم ص ١٠٢ ٠

وكان الصابئة يقولون بقدم الأصلين « الله والشيطان » أو الخير والشر ، والموجب والسالب مثلهم مثل المجوس ، ويعتقدون فى « الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر ويقربون الذبائح ويصلون خمس صلوات فى اليوم والليله ، ويصومون شهر رمضان ، ويستقبلون فى صلواتهم الكعبة وحرموا الميتة ولحم الخنزير ، وكان الذى يدين به الصابئة اقدم الاديان على وجه الدهر والغالب على الدنيا ، وبقاياهم بحران يسمون الحنفاء ويتفقون مع النصارى فى التثليث وفى أن خالق الخلق ثلاثة » .

وقد يلقى التفسير التالى مزيدا من الضوء على قدم حقيقتى أولئك الصابئة أو الحنفاء وهو أن « يهوه » اله القبائل الاسرائيلية عرف بيهوه صابؤات (١) « أو يهوه صابىء أى رب الجنود أو يهوه القائد » .

ويبدو تقديس الساميين « اصحاب الوبر » لهؤلاء الاسلاف من الجبارين « بنى الوهيم » أو العماليق فى تلك الأسطورة التى تكشف عن اصل منشئهم ، ويلاحظ جيداً فى هذا التراث الاسطورى

---

(١) التوراة : فؤاد حسانين ص ١٢ .

السامى ، انه ما من شعب أو قوم أو قبيلة أو رهط ، لم تصاحبه اسطورته التى دفعت به الى الوجود وجاءت به الى العالم ورسمت له ارض ميعاده •

وسنحاول توضيح هذا عند التعرض لكل مجموعة أو حضارة أو شعب بقدر من التبسيط • ونظرا لان هذه الحضارات أو المجموعات أو القبائل المتجانسة هى ماستطالعنا بشكل متوال يفضي بنا الى متاهات علوم الانساب ، أو الكوزمولوجى •

فيرجع سفر التكوين الاسطورة المصاحبة لمولد ووجود هؤلاء الجبابرة الى ان اتصالا كان قد تمبين الملائكة وبنات الناس « حين دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادا وهؤلاء هم الجبارون الذين منذ الدهر ذوو اسم » وتذكر اغلب المصادر السامية ان هذا الاتصال وقع على جبل « حرمون » أو جبل الشيخ بلبنان وتحت ظلال أشجار أرز لبنان شجر عشترت الهه الاخصاب الجنسى « وهناك ولد الجبابرة المذكورون الذين كانوا فى البدء الطوال القامات الحاذقين بالقتال » •

وعلى هذا فرقت الأقوام السامية بينها وبين اولئك الجبابرة بل أنهم حاربوهم واعتبروهم خارج النسل السامى •

والملفت أن احد مصادر الميثولوجيا العربية وهو عبيد بن شريه الجرهمي ينسب (١) عادا الى شجرة النسب السامي فهو كما يقول « عاد بن عوص بن سام بن نوح وهو الذى احدث له عشرةأولاد هم : شداد وكان أول ملوكهم الذى بنى ـ مدينـــة ـ ارم ذات العماد ، والخلود وهم : رهط النبى هود ، وتيم بن عـــاد ، وبهـــار ، والعنود ، والحقــود ، والوصور « ثم تجيء بعد ذلك الاسطورة النوحية، نسبة الى النبى نوح ، الذى « وجد نعمة فى عينى الرب » فاقام معه عهدا فى نسله فانجب نوحاولاده الثلاثة حام وسام ويافث » ، ثم حلول الطـوفان كعقاب وانقاذ نوح للجنس البشرى حين صنعفلكه وحمل معه من كل جنس أو مخلوق (٢) « سبعــة سبعة ذكرا وأنثى » وما اعقب الطوفان من انتقال حضارى منها بداية التعريف بالمحارم (٣) « غــير ان لحما بحياته دمـه لاتأكلـــوه واطلب أنا دمكم لانفســكم » واقامة اللــه الميثاق مـع بنى نوح » « وضعت قوسى فى السحاب فتكون علامة ميثاق

---

(١) نبوءة باروخ فصل ١ ـ التيجان ـ اخبار عبيد بن شريه الجرهمى ص ٣٢٦ .

(٢) تكوين ٧ .

(٣) تكوين ٩ .

بيني وبينكم » ثم تجيء بعد ذلك أول افكار القبيلة أو الرهط الملعون ، متمثلة فى خطيئة حام ، حين سخر من عرى ابيه نوح والتى بسببها اصبح وجه الحاميين – ذوى البشرة السوداء – أسود فى المصادر العربية ، ولعن بسببها كنعان ابن نوح فى الاساطير العبرية (١) « ملعون كنعان عبد العبيد يكون لاخوته » ٠

وكان ان انحدر من حام ابن نوح « كوش – ابو الكوشيين فى النوبة والسودان – ومصرايم وفوط وكنعان – وكوش – ابو الصيادين فى البر والبحر – ولد نمرود » الذى ابتدأ ان يكون جبارا فى الارض « اما ابنه كنعان – ابن اللعنة – فولد (٢) » صيدون – مؤسس مدينة صيدا – فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، وبكره حثا – أبو الحيثيين – واليبوسى والاموري والجرجاشى « وكانت تخوم الكنعانى من صيدون حينما تجىء نحو جرار الى غزة وحينما تجىء نحو سدوم وعمورة وآدمة – آدم – وصبوييم الى هالاشع » ٠

ومن نسل سام جاء عيلام – أبو العيلاميين –

---

(١) تكوين ٦ : ٢ ٠

(٢) تكوين ١٠ ٠

وآشور ولد آرام ـ أبو الآراميين ـ وشالح وعابر » ولعابر ولد ابنان اسم الواحد فالج لان فى ايامه قسمت الارض واسم اخيه يقطان » ٠

ويقطان هو قحطان أبو القحطانيين ، ومنه جاء العرب القحطانيون الجنوبيون سكان اليمن كما أنه أبو العرب العاربة ، وابنه يعرب بن قحطان « أول من تكلم العربية » ، ومن نسله جاء ملوك سبأ ، وكان أولهم الملك عبد شمس بن سبأ ، الذى سمى سبأ لانه كان يسبى أعداءه ، وبحسب مايشير به نسابة العرب ، فان من نسل سبأ انحدر ملوك حمير ، وكهلان ٠

فمن حمير ملوك بنى قضاعة ، وبنو كلب ابن وبرة ـ وهم الكلبيون ٠ ومن كهلان انحدرت سبعة بطون ، تضخموا الى قبائل وحضارات كبيرة فيما بعد ، وهم طىء ومذحج وهمدان وكنده، ومراد ، وانمار ، والازد ، ومن الازد انحدر الغساسنة ملوك الشام ـ عقب خراب سد مأرب ، وكذلك انحدر منهم قبيلتا الاوس والخزرج ، ملوك يثرب ، ومنهم ايضا انحدرت قبائل خزاعة ، سدنة أو كهنة الكعبة فيما قبل الاسلام ٠

ومن نسل الاخ الثانى عابر ، انحدر العبريون،

ويقال انه انما سمى عابر لانه كان أول من عبر الارض وهـــو ابو القبائل العبرية ، بمعنى ان لفظ عبرى تشمل معنى أوسع وأشمل من لفظ اسرائيلى أو يهودى ، فاسرائيلى ترتبط بشكل خاص بيعقوب الذى سمى اسرائيل ، ويهودى نسبـــة الى ابنـــه يهوذا ، وهو ما سنتعرض له فى حينه .

فالقبائل العبرية الرعوية ، قبائل صحراوية ، وعندما (١) نزلوا فلسطين كانت لغتهم عبـــارة عن لهجه آرامية ، أقرب الى العربيـــة منها الى أى لغة سامية اخرى كما كانت معتقداتهم الفولكلورية ، واللاهوتية ، نتاجا صحراويا مكتمل المعالم .

ويبدو ان عابر ، كان هو أبو القبائل الرعوية ، أو البدو الرحل أصحاب الوبر سكان الصحراء ، اذ ان عابر انجب « رعو » ، بما قد يشير الى رعى أو رعاة ـ ومن رعو جاء تارح الذى انجب بدوره « ابرام ـ ابراهيم ـ وناحـــور وهـــاران ، وولـــد هاران لوطا » ، وهكذا تكتمل بداية اصول قبيلة ابرام أو ابراهيم الخليل . حـــين هـــاجرت مـــن العراق الاعلى منطقـــة الجزيرة بين دجـــلة والفرات

---

(١) مصر والشرق الأدنى القديم د . نجيب ميخائيل ابراهيم ، ج ٣ ، ص ١٤٧ .

المعروفة الى اليوم فى العراق ب « أور الكلدانيين ·
وكان « اســـــم امـرأة ابرام ســـــاراى ، وكانت ســــــاراى عاقـــرا ليس لهـــا ولد »
ومايهمنا هنا هـــو هجرة قبيلتى ابراهيم ولوط ابن اخيـــه هاران ، « فخرجوا من أور الكلدانيين ليذهبوا الى ارض كنعـان ، فـأتوا الى هـاران ، وأقاموا هناك » ·
ويؤرخ لهذه الهجرة ابتداء مـــن الالف الثانية قبل الميلاد ــ حوالى ١٩٢٠ ق·م ·

ويوحد (١) دارسو الميثولوجيا الســـامية بين « ايل » أعظم آلهـــة الشعوب الســـامية ، وبين ابراهيم ، فيحفظ ســـفر التكوين لابراهيم انـــه اقام (٢) « شرقى بيت ايل ، ونصب خيمته ، وله بيت ايل من المغرب وعـاى من المشرق ··· فبنى هناك مذبحا للرب » ·

وفى نفس هـــذا المكان الذى هـــو بيت ايل بدأت اسـطورة أرض ميعـــاد الاباء لدى القبائل الاسرائيلية ، حين وعد ابراهيم مـــن الرب (٣)

---

(١) التوراه ــ د · فؤاد حسنين على ، ص ١١ ·
(٢) تكوين ١٢ ·
(٣) تكوين ١٢ ·

ـ الذى قد يكون ايل ـ لنســـلك اعطى هـــذه الارض » ٠

وتجىء بعد ذلك سلسلة الاحداث المعروفة ، مثل تغرب ابراهيم الى مصر حين « حدث جـــوع فى الارض » ٠ واغتصاب فرعون مصر ، الـــذى تصر اغلب المصادر العربية ، على الاحتفاظ باسمه وهو الوليد بن مصعب ، لسارة « أخت ابراهيم فى الرضاعة وزوجته وابنة عمه » ، وغضب الرب على فرعون هذا فكان ان أكرم ابراهيم ، وأهـداه هاجر ، ويجىء بعد ذلك حادث انفصال قبيلة لوط عن قبيلة ابراهيم ، ونزوله الى الأردن (١) «فأختار لوط لنفسه كل دائرة الاردن وارتحل شرقا » ، ثم يجىء حادث تخريب مدينتى البحـــر الميت ، سدوم وعمورة وخروج لوط مع ابنتيه واحتمائهما فى احدى المغارات ٠

وهنا تمهد الاسطورة « اللوطية » الى خـــروج قبائل الموآبيين والعمونيين الى الوجود ، سـكان الاردن الذين نازعوا القبائل الاسرائيلية بعد ذلك على طـــول تاريخ الاسرائيليين فى فلســـطين ، فبعد ان احتمى لوط بالمغارة مع ابنتيه « قالـــت البكر للصغيرة : ابونا شـاخ ، وليس فى الارض

---

(١) تكوين ١٣ ، وابن حزم ص ١٠٥ وما بعدها ص ٢٢ ٠

رجل ليدخل علينا كعادة أهل الارض ، هلم نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه » ، وهكذا تعاقبتا الاضطجاع مع أبيهما ، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه مواب وهو ابو الموابيين الى اليوم ، الصغيرة أيضا ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمى ، وهو ابو بنى عمون الى اليوم » .

وهى تضمينة اسطورية مهاجرة من اصل مصرى ، وترد فى المثولوجيا المصرية ، مرتبطة بآلهة الموت « الندابة نفتيس » التى سماها « بلوتارخ بافروديت » و Nike ومن القابها « سيدة القصر » . وجاء مولدها فى اليوم الخامس النسيئة .

وتروى أساطير هذه الالهة نفتيس « انها كانت تتمنى ان تنجب طفلا من اخيها الاكبر اوزوريس ولهذا الغرض اسكرته وضاجعته ، وكان ثمرة هذا اللقاء الدنس انجابها للاله أنوبيس » .

ويعتبر هذا الاله المصرى انوبيس ، بمثابة النبتة الاولى للملاك ـ الرسول جبريل أو جبرائيل فى الميثولوجيا السامية .

●●●

وكانت القبائل العمونية ـ بالاردن ـ قبائل زراعية ، قريبة لهجاتها من العربية ، بينما كان الموآبيون بدوا صحراويين رحلا ، وهى فكرة ستتكرر بشكل متوال فيما بعد وموجزها الصراع

الأزلى بين الزراعة والبداوة ٠ أو بين الفلاحين والبدو ٠

ويقال ان موسى كان قد حرم على الاسرائيليين ، فى سيناء قتالهم للموآبيين والعمونيين (١) ٠ لانهم عبريون من بنى لوط «حين نزولهم أرض الميعاد على عكس ما أوصاهم وأمرهم باتباعه بالنسبة للاقوام (٢) الكنعانية والامورية والحيثية ، وماتشعب منها ٠

« وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا ، فلا تستبق منها نسمة ، بل تحرمها تحريما ، الحيثيين والاموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين » ٠

وبالنسبة للاساطير المصاحبه ، لقبيلة ابراهيم فحين تزوج ابراهيم بهاجر المصرية ، انجب منها اسماعيل ، أبا القبائل العربية ، الرعوية سكان شمال الجزيرة العربية ، فى الحجاز ونجد ، حين سخطت سارة وغارت عقب انجاب هاجر لاسماعيل فطردته وأمه ، فأسكنهما ابراهيم وادى « فاران »

---

(١) تثنية ٢٠

(٢) تكوين ٢١ ٠

أى مكة « رب انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » ، فكان أن اسكن الله افئدتهما بقبائل جرهم والعماليق » (١) وكان الله مع الغلام فكبر وسكن فى البرية وكان ينمو رامى قوس ، وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمة زوجة من أرض مصر » •

وتنسب هذه الاساطير لمجموعة واسعة جدا من شعوب وقبائل الاقوام السامية الانحدار من صلب ابراهيم فلقد تزوج ابراهيم بنساء ثلاث ، منهن ، هاجر المصرية التى انجب منها (٢) اسماعيل أبا العرب ، سكان نجد والحجاز ، وقيدار وحدد ويطور وقدمه الخ •

ومن رحم سارة ، أنجب اسحاق الذى انجب بدوره يعقوب أبا القبائل الاسرائيلية الاثنتى عشرة (٣) وهم رأوبين وشمعون ولاوى ويهوذا ويساكر وزبولون ودان ويوسف وبنيامين ونفتالى وجاد واشير • وكذلك انجب اسحق « بنى عيسو » أو بنى العيص ، نسبة الى ابنه البكر العيص ،

---

(١) تكوين ٢١ •
(٢) اخبار الايام الاولى ١ •
(٣) أخبار الايام الاولى ٢ • حضارة العرب ٩٠ •

أبى الملوك الادوميين فى بادية الشـــام والاردن وجزيرة العرب ٠

وكانت زوجة ابراهيم الثالثة ، التى تزوجهـا عقب وفاة سارة ، امرأة كنعانية تدعى قطوزة ـ فمن رحمها انحدر ستة ملوك أو اقوام ، همزمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا ، ومنهم جاء ملوك شبا أو سبأ ، وددان أو ديدان ، وسيناء الخ ٠

ويقال ان هذه الاقوام والقبائل العربية مـــن آدوميين وموآبين وعمالقة وعمـونيين ومديانيين ، وغيرهم من اعراب سوريا ، تحالفوا عـــام ٢٠٠٠ قبل الميلاد وغزوا مصر تحت اسم « الهكسوس » أو ملوك الرعاة ، وأخضعوها لمدة قرنين ٠

وطبعا كان لكل من هذه الاقوام والقبائل ، التى تكاثرت بدورها متمددة متطاحنة ٠ كان لكل منها انبياؤها وطلائعها ومشرعوها ٠

فالى قبائل الجبابرة ، أبناء الله ومنهم قبـــائل عاد البائدة ــ ارسل النبى هـــود ، الذى يمكـن توحده مع الدهر أو المنايا أو المنون أو القدر ٠

والى ثمود ــ أرسل صالح ، وطوطمه المتمثل فى الناقة ، أو الابل كما كان ايوب نبيا ، للادوميين ، أهل أدوم ، فى بادية الشام بسوريا ٠

وكان مثلهم مثل بقية الاقوام الكنعانيـــة بل السامية بعامة ، يقدمون التضحيات البشرية وغير

البشرية « قدس لى كل فاتح رحم من الناس والبهائم » ، « وأطلب أنا دمكم لانفسكم فقط ٠من يد كل حيوان أطلبه ٠ ومن يد الانسان أطلب نفس الانسان » ٠

كما انهم اعتقدوا في الجن والشياطين والعفاريت والارواح والشريرة والخبيثه ٠

ويرى بعض المستشرقين مثل « نولدكه » ، أن معتقداتهم هذه عن الجن والشياطين جاءتهم من الايرانيين ٠

فانتقال العرش من شاول أول ملوكهم الى بيت داود ، خطيئة ، مرجعها طلب - شاول - الى الجن للسؤال ، ولم يسأل من الرب فاماته وحول المملكة الى داود بن يسى » ٠

وهي نفسها الخطيئة التى بسببها جز الفلسطينيون رأس شاول هذا « وسمروها فى بيت - الههم - داجوان ، اله الحبوب » ٠

كما ان هذه التضمينه ، عادت فتبدت مع داود، فكانت خطيئة داود التى بسببها « وقف الشيطان ضد اسرائيل « حين » أغوى - الشيطان - داود ليحصى اسرائيل ، ومنها تواترت الفكرة الشفاهية عن « ان العدد يقلل البركة » وكان ان غضب الرب ، وأرسل الى داود ثلاث لعنات ليختار احداها ، لينتقم بها من اقدام داود على احصاء

شعبه (١) أما ثلاث سنين جوع ، أو ثلاثة شـهور هلاك أمام مضايقيك وسيف اعدائك يدركك ، أو ثلاثة أيام يكون سيف الـرب ووباء فى الارض ، وملاك الرب يعثو فى كل تخوم اسرائيل » ٠

فلقد استغرقت تلك القبائل الاسرائيليـة فى الخرافات الطموطمية ، ومثلهم مثل القبائل العربية الجاهلية ، اعتقدوا فى الجن التوابع ، وحـرموا عتبات البيوت ٠

فلقد كانت القبائل الجاهلية من « الحمس » أو الاحامس متضمنة لقبائل : قريش وخزاعة والأوس والخزرج وصعصعة وأزد شنوءه ، وجذم وسـليم وعمر واللات وثقيف وغطفان والغوث وعدوان وعلاف وقضاعه ،هم أهل الحرم ، المتشـددين فى دينهم ـ المتحمسين ـ ، كان هؤلاء الاحامسة « يعزفـون عن المرور تحت عتبات البيوت » لذا اخترعوا ودخلوا البيوت من فتحاتها الخلفيـة ، وفيهم قيل « ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها » وهو مالايزال شائعا ومعروفا بالنسبة للمدخل الخلفى فى بيوتنا القروية ، ويطلق على ذلك المدخل ـ الشعائرى ـ اسم الخوخة الى اليوم ٠

---

(١) اخبار الايام الاولى ١٠ ٠

ويبدو أنهــا فكرة أو تضــمينة أســـطورية ، متوارثة منذ السومريين ٠
كما ان منها الربط بين الخطايا ومداخل البيوت واعتابها ، فى الميتولوجيا المسيحية « خطيئــــة رابضة عند الباب ، واليك اشتياقها » ٠

كما حلت القباب الحمر ، محل تابوت العهـــد عند العــرب ، ومنهــا « قبــة مصر الحمــراء » أو « القبة الحمراء وهى من ادم » أو « أهل القبـــاب الحمر » ، وهو ما مر الحديث عنه وكذلك المنازعات الطويلة حول رأس عيسو أو العيص أبو الادوميين٠
ويلاحظ أنه منذ أيام قليلة ــ يوليو ســــنة ١٩٧٤ ــ اكتشفت احدى البعثـــات الانجليزية ، أطلال مدينة أدوم بالاردن ، وترجـــع الى ٢٧٠٠ ق٠م ٠
ومع تسيد الاسرائيليين على جيرانهم ومتاخميهم، تسيد ــ بالتالى ــ طوطمهم ، أو تابوت العهـــد ، فكانوا يقدمون له القرابين « واحد لاشـــدود ٠٠ وواحد لغزه ، وواحد لاشقلون ، وواحد لعقرون، وفيران الذهب ــ بعـــدد جميع الفلســـطينيين ، وشاهد هو الحجر الكبير الذى وضعوا عليه تابوت الـــرب » ٠

ومع انتصار داود على سلفه وغريمه الملك شاول، ــ أول ملوك اسرائيل ــ وانتقال الملك الى سبطــه

أو عائلته نقل داود التابوت الى مدينته « مدينة داود بفرح ، وكان كلما خطا حاملو تابوت الرب ست خطوات ، يذبح ثورا ، وعجلا معلوفا ، وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب » ، ويبدو أن انطلاق داود وتهتكه أمام التابوت ، لم يرض الارستقراطية الاسرائيلية الجديدة ، اذ أن زوجته ميكال ابنة الملك شاول الذى خلفه داود ـ وكان كلاهما من القاع ـ على عرش أورشليم ، لم ترض ميكال عن تصرف داود هذا حين أطلت من الكوة ورأت الملك داود يطفر ويرقص أمام الرب ، فاحتقرته فى قلبها » ٠

ونصب داود التابوت « فى وسط الخيمة التى نصبها له » والخيمة هى ما أصبحت بعد ذلك « خيمة الاجتماع » ، مثلما كانت « بيوت الحلفاء »، أو المعابد المجدولة من الحلفاء نواة للمعبد المصرى القديم ، ومثلما كانت الكعبة فى أدنى اشكالها يسمونها « الاخشف » أو « الغبغب » ٠ وهى المكان الذى نصب عليه الكاهن الخرافى عمر بن لحى الجرهمى ، أصنام مكة التى قيل انها بلغت ٣٦٠ صنما بعدد أيام السنة القمرية ٠

وكانت خيمة الاجتماع هذه بمثابة التمهيد لاقامة المعبد الاسرائيلى ، أو الهيكل الذى بناه المهندسون والفنانون الفينيقيون على نمط المعابد

المصرية من حيث المعمار ، والنحت والتصوير الاشورى البابلى من حيث التشكيل .

ولقد حدثت حكاية طريفة حول اقدام داود على تشييد أول معبد عبرى ، حين قال الملك داود لناتان النبى « أنا اسكن القصر ، وتابوت الله ساكن داخل الشقق » .

فكان ان غضب « يهوه » أو « التابوت » ، أو « الطوطم السلف » ورد اليه ناتان قائلا ، « اذهب وقل لعبدى داود ، هكذا قال الرب ، انت تبنى لى بيتا لسكناى ، لانى لم اسكن فى بيت منذ يوم أصعدت بنى اسرائيل من مصر الى هذا اليوم ، بل كنت أسير فى خيمة وفى مسكن » . كما قال يهوه لداود : « أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيسا على شعبى اسرائيل » .

وكثيرا ماكان أنبياؤهم ، يمنعونهم من « مضاجعة النساء المجتمعات فى بيت خيمة الاجتماع » .

وفى تلك المرحلةالطوطمية ، كانوايلقبون النبى « بالرائى » أى ذلك الذى يرى حجب المستقبل ، وكان « الكهنة من بنى لاول ، حاملى تابوت عهد الرب » يمنعونهم بحسب وصايا موسى من مضاجعة البهائم والحيوانات ، من على قمم الجبال، فكانوا يقولون : « ملعون من يضطجع مع امرأة

أبيه • لانه يكشف ذيل أبيه وأمه ــ ملعون من يضطجع مع حماته » الخ •

ومثلهم مثل بقية الاقوام والقبائل الطوطمية ، كانوا يقدسون الاحجار والشواهد •

ويرد ذكر الاصنام أو الاحجار ــ المقدسة ــ أو الشواهد ، خلال ذكر تاريخ ذلك الطور الطوطمى ــ الانيمى ــ الذى مرت به هذه القبائل أو الاقوام المتنافرة فى بعض مدن الشام وفلسطين •

ولعل « اختيار » داود للاحجار الخمسة التى نازل بها خصمه الفلسطينى جالوت له دلالته •

وعندما انتصر الاسرائيليون على الفلسطينيين اخذ الكاهن النبى (١) « صموائيل حجرا ونصبه بين المصفاة والسن ، ودعا اسمه حجر المعونة » •

وحين عاهد يشوع القبائل العبرية عامة ــ قبل وفاته ، بألا يعبدوا (٢) « الالهة الغريبة عنهم نصب لهم حجرا ، قائلا : « ان هذا الحجر يكون شاهدا علينا لانه قد سمع كل كلام الرب » •

فلقد كانوا يقدسون مظاهر الطبيعة من حولهم من آبار ماء وحيوانات وكهوف أو مزارات واماكن

---

(١) صموئيل الاول ٢ •

(٢) صموئيل الثانى ٧ •

مقدسة ، لكل منها بعلـه أو سـيده أو حاميـه ، فيقال ـ « بعل المكـان الفلانى » ، « أى اله ذلك المكان » أو حاميه ٠

وأورد سير سـير جيمس فريزر ، كثيرا مـن الشواهد عن تقديسهم لمظاهر الطبيعة من حولهم ، ومنهـا تلك الحكايات عـن الحيوانات والطيور والاشجار التى ترد بكثرة شديدة عندهم ، مثل حكاية اشجار « يوثام » التى حكاها لهم من فوق أعلى جبل : « اسمعوا يا أهل شكيم ، يسمعكم الله، مرة ذهبت الاشجار لتمسـح عليها ملكا ، فقالت للزيتونة ، أملكى علينا ، فقالت لهـا الزيتونة : « أأترك دهني الذى به يكرمون بى الله الناس ٠ وأذهب لكى أملك على الاشجار ، ثم قالت الاشجار للتينة : تعالى أنت وأملكى علينا ٠٠ فقالت لهـا التينة ، أأترك حلاوتى وثمرى الطيب وأذهب لكى أملك على الاشجار ، فقالت الاشـجار للكرمة ، تعالى أنت وأملكى علينا ، وقالت لها الكرمـة أأترك مسطارى الذى يفرح الله والناس ٠ وأذهب لكى أملك على الاشجار ٠

ثم قالت جميع الاشجار للعوسج : تعالى أنت وأملك علينا ، فقال العوسج للاشـجار ، ان كنتم بالحق تمسحوننى عليكم ملكا ، فتعالـوا واحتموا تحت ظلى والا فتخرج نار من العوسج وتأكل أرز لبنان » ٠

وتكشف الكيفية التى اختار بها جدعون ــ
بالمرحلة الطوطمية لشيوخ القبائل ــ رجاله لقتـ
الميديانيين ــ سكان سيناء ــ الذين استعمروهم
عن كيف أن هــذه القبائل ، كانت مغرقـــة
الطوطمية .

وقال الرب لجدعون ، كل من يلغ بلسانه
الماء ، كما يلغ الكلب فأوقفه وحده : « وهكذا فر
جدعون هؤلاء ــ الكلبيين ــ وأخذهم وقاتل بهـ
الميديانيين « العــرب » . « وأمســـــكوا أمـير
الميديانيين ، غرابا وذئبا وقتلوا غرابا على صــخ
غراب ، وأما ذئب فقتلوه فى معصرة ذئب » .

وكانت النخلة شجرة الميلاد المقدسة عندهم
كما كانت عند اغلب الشعوب السامية ، مثل نخ
نجران عند عرب الجنوب ، ونخلة تدمر أو تمر
عند القحطانيين وكانت النخلـــة هى الشــجر
المقدسة عند الكاهنة دبورة ، اقدم شــاعرة عبر
« ودبورة امرأة نبية ، وهى جالسة تحت نخلـ
دبورة بين الرامة وبيت ايل » .

ومثلهم مثل بقية القبائل والشعوب الساميـ
البدائية ، أكثروا من الاغراق فى المعتقدات الغيب
مثل السحر والتنجيم ، والايمان بالحظ أو الميس
مثل الجاهليين ، فكانوا يحتكمون الى القرعــة فر

أغلب مايخصهم من أمور مثل الحرب والاغارة .
فبعد أن شاخ يشوع وتقدم في الايام جمعهموقال محذرا من الاستغراق في الخرافات . ذلك رغم ان موسى كان قد حذرهم في وصاياه من العيافه والعرافة واستشارة الموتى ، وغير هذا « لايوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته في النار ، ولا من يعر فاعرافة ولا عائفا ولا متفائلا ولا ساحرا ولا من يرقي رقيه ، ولا من يسأل جانا أو توابعه ولا من يستثير الموتى » .

ويبدو ان معتقداتهم عن التشاؤم والتفاؤل والعرافة والغيافة ، قد انتقلت اليهم من جيرانهم الفينيقيين ، اذ ان هذه المعتقدات كانت جزءا حيويا من كيان المعبد الفينيقى ، حيث خصصت الحجرات السفلى من هذا المعبد لممارسة هذه الطقوس الخرافية ، بنفس ما كان متبعا بالنسبة للمعبد البابلى .

وطبعا لاحد لاهالةالتراب والرماد والطين وتمزيق الثياب والندب حول طوطم الاباء (١) « فمزق يشوع ثيابه وسقط على وجهه الى الارض أمام

---

(١) يشوع ٢٣ ــ يشوع ٧ ــ ٤ يشوع ٧ ــ ٥ ــ أخبار الايام الاول ٢٦ .

تابوت الرب (١) الى المساء هو وشيوخ اسرائيل ، ووضعوا ترابا على رءوسهم » •

فما من أمر لم يحتكموا فيه الى القرعة ــ قبل ــ تعيين الكهنة والخزنة والقضاة والحروب واختيار رؤساء الجيوش والغزو وجهاته وهكذا ••

وكان يشوع عاتيا فى ارســـائه لتشريعاتهم المغرقة فى القبلية ، مثل رجم الســـارق ، وابادة بيته ، بل وعشيرته ، من ذلك ان احدهم ويدعى عخان اعترف له باخفائه بعض الاسلاب عقب احدى الغزوات فكان ان « اخذ يشـــوع عخـــان بن زارح والفضة والرداء اولســـان الذهب وبنيـــه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمتـــه وكل ما له وجميع اسرائيل معـــه ، فرجمـــه جميع اسرائيل بالحجارة واحرقوهم بالنار ، وأقاموا فوق رجمـــه حجارة عظيمة الى هذا اليوم » •

فكانت خطايا الاباء تحل بالابناء ، ويقع وزرها على رءوسهم ويرد هذا صراحـــة فى وصاياهـــم « وقد اخبرته بان اقضى على بيته الى الابد ، مـــن أجل الشر الذى يعلم ان بنيه قد أوجبوا اللعنة على

---

(١) تثنيـــه ١٨ •

انفسهم » فلعنة نوح لابنه حام وقعت مباشرة على رأس كنعان ابن حام • وهكذا •

وكانوا يرجمون الابن الذى يعصى والديه ، بحسب وصايا موسى لهم فى سيناء •

كما كانوا يشهرون دم العروس « أخذ وشها »، واذا لم تكن للبنت العروس عذرية « يرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت لانها عملت قباحة » •

باختصار هو تراث طوطمي قبائلى ، لايختلف كثيرا عن تراث العرب البائدة ، وورثتهم الجاهليين •

ومن هنا فمن العبث دراسة هذه المنطقة ، قلب العالم القديم ، بمعزل عن هذا التراث العبرى السامى •

وبنفس هذا المنهج يتلقانا العالم المتحضر ، على اعتبار اننا منطقة متوحدة التراث •



الفصل الخامس

« عبدة القمر »

ويتبنى العرب العدنانيون أى المنحدرون من نسل اسماعيل بن ابراهيم الخليل فكرة أو رواية ، مؤداها أن عرب الجزيرة العربية ، كانوا حنفاء بمعنى أنهم كانوا على دين ابراهيم الخليل ، موحدين لايعبدون الاصنام والاوثان ، فمن « كان على دين ابراهيم فهو حنيف » فلقد كانوا يختتنون ويحجون البيت ويغتسلون ، ويتجنبون الاوثان الخ »

ويرى بعض الباحثين أن لفظة « حنيف » أو «حنف» من أصل آرامى ، وعنهم أخذها اليهود العبريون والسريان والعرب ، وخاصة سكان اليمن ويقال انه كان من الموحدين الحنفاء : قس بن ساعدة الايادى والشاعر الجاهلى العظيم أمية بن أبى الصلت ، وأرباب بن رئاب ، ووكيع بن سلمة بن زهير الايادى ، والشاعر زهير بن أبى سلمى ، وخالد بن سنان العبسى ، وسيف بن ذى يزن ، وورقة بن نوفل القرشى وغيرهم ، وهو ما أورده القرآن فى سورة آل عمران آية ٦٧ وما بعدها ـ وكان هشام وابنه محمد الكلبى ، على رأس المروجين لهذه النظرية التى شغلت عددا كبيرا جدا من المستشرقين وعلماء السامية المحدثين .

وينسب ابن الكلبى ، لشخصية ملك أو حاكم، خرافى ، هو عمر بن لحى الجرهمى ، انه أول من

جلب الاصنام ونصبها حول الكعبة « فكان أول من غير دين ابراهيم ،وسبب السائبة ووصل الوصيلة»

ويبدو أن بن لحى الجرهمي هذا كان منتسبا الى واحدة من القبائل العربية البائدة أو المندثرة وهى قبائل جرهم ، فأمه ، «يقال لها قمعه بنت معاف الجرهمي »

وتنسب المصادر الميثولوجية العربية المتمثلة في الرواة العرب القبائل جرهم المندثرة مثلها مثل قبائل عاد وثمود وطسم وجديس ، أنها أى جرهم كانوا أخوالا للعرب العدنانيين وأن اسماعيل بن ابراهيم تزوج منهم بعد أن كبر حين تركه أبوه ابراهيم « بواد غير ذى زرع » فآنس الله وحشته وأمه هاجر ، بقبائل جرهم والعماليق ، يقول عبيد بن شرية الجرهمي «فكنا نحن جرهم أصل البلد الحرام ، فنشأ اسماعيل فينا ، وتكلم العربية وتزوج منا فجميع ولد اسماعيل من بنت معاف ابن عمرو الجرهمي فاسماعيل وأبوه منا ،وانتم يا قريش منا والعرب منا .

ويقول الهمداني عن رواية لوهب بن منبه انه « لما اخذ جرهم التابوت ـ أى تابوت عهد الرب ـ وبه جثمان آدم وهم قبائل ـ عدنان ومن معهم من العرب العماليق ـ طسم وجديس أنهم واروه ودفنوه فى مزبلة ، فنهاهم عن ذلك

الحارس بن معاف الجرهمى ، والنبى اسماعيل بن الهمبسع بن ثابت بن فيدار بن اسماعيل بن ابراهيم، فلم ينتهوا ، فأهلك الله الفريقين جـرهم وعدنان والذين هلكوا مائتا ألف ونيف ، أرسل الله عليهم الرعاف ، فحزن الحارث بن معـــاف على قومه لمـــا هلكوا ، وسار على وجهه يسبح فى الارض ثلثمائة سنة ، حتى ألم به الكبر والهرم والعمى وهو القائل هذه الاشعار المكتوبة فى مقام ابراهيم :

وكنا ولاة البيت من بعد ثابت
نطوف بذاك البيت والعز ظاهر

وصرنا أحاديثـــا وكنا بغبطة
كذلك عضتنا السنون الغوابر

فسحت دموع العين تجرى لبلدة
بها الامن أمن الله فيها المشاعر

فيبدو ان ثمة صراعا قد نشب بين القبائل العربية البائدة والباقية أو بين قبائل جرهم وقبائل اسماعيل أو الهاجريين ــ وبقاياهم الى اليوم بالسعودية ــ ، بنفس ما حـــدث مـــع عـــرب الجنـــوب القحطانيين ، وأسلافهم من العرب البائدة عاد وثمود وطسم ، وما حدث مع الكنعانيين والعبريين والعمالقة أو العماليق فى ربوع الشام وفلسطين • بمعنى

حلول أحقاب تاريخية أو حضارية بحسب تفسير هذا التاريخ الآسطورى التخمينى .

ويبدو أن هذا النزاع بين القبائل البائدة والباقية الذى قد يكون - على سبيل التخمين - نزاعا ذا طابع حضارى مغرق فى القدم ، وانه كان متبوعا ، بانقلاب أبوى ، أى نقل السلطة من الام الى الأب أى من سارة وهاجر الى ابراهيم واسماعيل أو من «بنت مضاض بن عمرو الجرهمى الى اسماعيل وابنه قيدار وثابت الخ » وهذا مادعا عبيد بن شريه الجرهمى الى القول بأن «جميع ولد اسماعيل من بنت مضاض الجرهمى ، وأيضا اسماعيل وأبوه ابراهيم وقريش والعرب من جرهم » نسبة الى الآلهة الأم القبلية .

بل ان الصراع على التابوت ، تابوت العهد الذى أخذته قبائل جرهم كما يقول وهب ، يشير أكثر الى طبيعة ذلك الصراع ، ومعناه أن هذه القبائل السلفية كانت من عبدة جثمان آدم . فيقال ان الجثمان كان مخبوءا فى كهف ماكبيلا ، وأن قبيلة كالب عبدته ويقال ان قبائل كالب «العربية والعبرية» كانت تعبد جثمان آدم .

وكالب اسم لقبائل عربية وعبرية وكنعانية ومن أسمائها بن كلب بن وبره و « بنى كلب » بن «ربيعة بن صعصعة» و «الكلبيين» و «كليب » الخ .

كما يقال بأن الاشياء التي كانت قد سرقتها راشيل ـ أم النبى يوسف ـ الآلهة القمرية الأم لقبيلة يعقوب ـ « ولابان بن ناحور » بعد زواجها من يعقوب كان من بينها رأس آدم • وراشيل أو الكاهنة الحمامة ـ هى الالهة الام التى من اسمها جاءت تسمية اسرائيل •

وكانت قبائل كالب ، عشائر أدومية ، ومنها جاءت تسمية آدم بمعنى الرجل الاحمر ـ وتوجد اشارات فى التلمود الى أن رأس العيص ابن اسحق، أبو الادوميين ، كانت بدورها مجالا لصراع متواصل ويقال ان يوسف الصديق تمكن من انتزاع رأس عيسو أو العيص ودفنها فى عبرون •

ويرى البعض أن ثمة علاقة بين القبة الحمراء التى كانت تتخذها قبائل قريش وتابعوهم من القبائل المعروفة بالاحامسة أو الحمس أو الاحامس ، أو بنو أحمس، بمعنى المتحمسين لآلهتهم وللكعبة ،وتميزوا بتلك القباب الحمراء حتى أطلق عليهم (١) أهل القباب الحمر من الادم ••

---

(١) ابن سعد (٤/١) ـ المحبر ص ١٨١ •

«واذا ماكانت لفظة ــ الادم ــ نعنى أديم الارض. فقد يشير هذا الى علاقة بين تابوت العهد أو التابوت الذى به جثمان آدم بالاضافة الى رأس العيص ابن اسحق « الرجل الاحمر » أبو الادوميين ٠

مما يؤكد اكثر ان تلك القبائل السالفة البائدة قد أورثت لاحقيهم من العرب الجاهليين عبادة اسلافهم الاول : أدم عند الهاجريين والعبريين ، وابنه شيث ابن آدم أو أخنوخ أو ادريس عند الصابئة وابراهيم عند الحنفاء وهكذا وحفيده العيص ابن اسحاق عند الادوميين أشقاء العبريين ٠

بل ان أحداث الصراعات المتوالية حول مايعرف فى أساطير الشرق الادنى بعصا شعيب أو يثرون يجعل من تلك العصا رمزا سلفيا مرادفا أو متطابقا مع جثمان آدم ورأس العيص ابن اسحاق وقباب الحمس فيقال عن تلك العصى «انها هدية الرب لآدم عقب طرده من جنة عدن وانها توارثت من أب لابن، الى ان وصلت ابراهيم فأورثها ابنه مدين وأمه « قطورة بنت مقطور من العرب العاربة ، فأورثها مدين شعيب ، الذى أورثها بدوره لموسى عقب زواجه من صفورة ابنة شعيب» ٠

وفى رواية أخرى يقال ان يوسف سرقها من شعيب وزرعها فى حديقة بيته الى أن جاء ــ الغلام

الجعد ـ موسى فانتزعها ، ويقال انها كانت من آس الجنة ، كما يقال بأنها كانت فى طول قامة موسى وانها هى بعينها ماأصبحت بعد ذلك بقرون بمثابة الصليب الذى صلب عليه المسيح •

فيبدو أن الصراع بين جرهم وعدنان كان فى صميمه صراعا بين عبدة جثمان آدم وتابعيهم من الحنفاء الذين حجوا البيت واختتنوا كما أوصاهم ابراهيم «واذا كان آدم وابراهيم ، ماهما الا وجهان لنفس البطل السالف» كما يشير روبرت جريفز(١) أدركنا طبيعة ذلك الصراع السلفى الابوى أو البطرقى ، لتلك القبائل التى تتبع الانهة والتقويم القمريين •

واذا ماانتقلنا الى نقطة تالية وهى تبعية القبائل البائدة أو المندثرة من عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق وجرهم للالهة ـ الانثى ـ القمرية ـ ذات الاطوار الثلاثة ـ أو الثالوث الذى أصبح أهم رقم مقدس فيما بعد عند الساميين بعامة •

فكان لقبائل عاد أصنام يعبدونها تسمى صداء وبغاء وصمود •

---

1 — White godess — 212 .

لنا صنم يقال له صمود

يقابله صــداء وألبغاء "

وتؤكد النصوص الحفرية التى خلفتها هذه القبائل المندثرة ودونت بالخط المسند «انها لم تتجاوز فى عبادتها آلهة ثلاثة هى القمر والزهرة والشمس »

ويدل هذا الثالوث الفلكى فى رأى الباحثين فى أساطير العرب الجنوبيين على أن القمر كان هو الاله الذكر الاب ، والابن هــو الزهـــرة ، والام هى الشمس ٠

ويلاحظ ان هذا التعريف النوعى مايزال محفوظا فى اللغة العربية « فالقمر مـذكر بينما الشــمس مؤنثة » ٠

أما الزهرة فكانت تسمى « عثتر » أى عشترت أو عشتار أو عشار بالمعنى الواسع للاخصاب من أرض وانسان وحيوان ٠

ويفسر الانثربولجيون ، الاطوار الاربعــة التى طرأت على تلك القبائل خلال تحولها من الامومية الى الابوية ، ففى أغلب المجتمعات البدائية ، عبد القمر كأسمى آلهة ثلاثية أطلقوا عليها اسم «نجم» وعند الساميين هلال ولعبت كاهنة الالهة نجم دورا فى قيادة الهاجريين والانتقال بهم الى طور جديد فأصبحت القاضى والكاهنة والملكة أو الاميرة الام،

وأقيم لها مزار كما أنها اتخذت لنفسها حيوانا أو نباتا طوطميا كان يحمى بالتابو أو «المحرم» •

ويلقى هذا بعض الضوء على التكوينات أو الاتحادات القبلية العشائرية «القديمة» وهى تواصل تكويناتها وتشكيلاتها ، بحيث رفعت وعممت الشعيرة – أو الشعار – التى سادت أقوى قبيلة لتصبح شعارا عاما لآلهة للولاية أو مجموع البطون والعشائر •

ونمثل الانتقال الثانى فى ظهور الاله الاب – الذكر – أو المذكر الذى تبنى أيام الاسبوع السبعة عند السومريين – اللاساميين – وكأسطورة شبه متفق عليها عند أغلب المجتمعات البدائية • فقد تزوجت الإلهة الام – نجم أو هلال من مخلوق وهمى أو سماوى – ومن هنا اصبحت كل شعيرة قبيلة مرتبطة بواحدة من القوى السبعة للكواكب السبعة السيارة ، وقدم لطوطم الالهة القمرية – نجم أو هلال – زواج مقدس سنوى ، يقتل فيه الكهنة التجسيد البشرى للاله الذى هو الملك زوج الالهة القمرية الام ، يقتله الكهنة فى نهاية كل عام •

ولقد مرت القبائل اليونانية والايجية – وأبناء عمومتهم الليبيون ، بهذا الطور ، كما أن د • مرجريت مرى ، تضيف بأن مصريين ، ماقبل التاريخ مروا بهذا الطور ، فأراق الكهنة المصريون

دم الملك الالهى الذبيح ونشروا رمـــاده بالارض «قبل موعد شقها بالمحاريث» أى مع موعد الحرث ويقال ان الرماد المتخلف من حـرق جثمان الملك الالهى كان يوزع على أقاليم مصر بالتساوى ٠

وكان الحيثيون ـ القوة الرئيسية الكبرى الموازية للمصريين على طـول الشام وفلســطين والورثة الموازون للبابليين فى مناصفة التراث الحضـــارى السومرى بعامة . بحسب مايراه ارنولد توينى ٠

كان الحيثيون ينثرون دم الملك المقتول المضحى به قبل موعد شق الارض بالمحاريث مثلهم فى هذا مثل جيرانهم المصريين ٠ أما جسد (١) الملك فكانت تأكله الجنيات وهن وصيفات الملكة الالهة القمرية وهن مرتديات اقنعة من رءوس الكلاب أو الجياد أو الخنازير ٠

وتمثل الانتقال الثالث فى أن عشيق الالهة الام ـ أصبح ملكا ووقر على اعتبار انه الهيئة الذكرية للاله الذكر ـ القمر ٠

ولقد تبدى هذا خاصة ـ فى الاله الفينقى بعل هامان « الذى كان فينقيو الشـــام وفلســطين ، يضـــحون له بقتل طفل سنويا كبديل لقتل الملك

---

(١) الاشتراكية والفن ص ٦٠ ترجمة اسعد حليم ٠

الالهى ، وظلت (١) عبادته سارية فى الشام وفلسطين الى مابعد القرن الرابع الميلادى ، وعرفت هذه الملة أو النحلة بـ « الاوردجيين أو النشابة »٠

وجاء الانتقال الرابع متبديا فى تضخيم قوة الملك ، واكتساب هذه القوة من الملوك المحليين الذين يعبدون القمر فلقد أعتبر هذا الملك ألاب نفسه ، ممثلا أو متقمصا لاله القمر واتخذ من نفسه ملكا شمسيا فى اللاهوت المصرى القديم ، وواصل زواجه السنوى المقدس محررا نفسه اكثر من الاعتماد على القمر ٠

بل أن الملك سلب الملكة أو الالهة القمرية سلطتها (١) « فكان يرتدى ملابس نسائية ويضع اثداء صناعية ممثلا الملكة » ٠

وفى هذه المرحلة حل الزواج الابوى بدلا من الزواج الاموى وتسمى الناس باسماء ابائهم بدلا من أمهاتهم ، ووحدت القبائل ببطل ذكر سالف ليقدس وهو ما حدث مع معظم شعوب العالم القديم ومنه يونانيوماقبل التاريخ والبلاسجيون والليبيون وغيرهم وحل بالتالى التقويم الشمسى بدلا من

---

(٢) الفهرست ص ٣٤٢ وما بعدها .

القمـــرى . واصبحت السنه ٣٦٥ يوما بدلا من ٣٦٠ يوما .

ولقد كشفت نصوص المســـند عن أن القبائل العربية أو المتعربة البائدة وهي قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعماليق والصفوة الـخ كانت تتبع الإلهة القمرية والانتساب الاموى.وعلى أي الاحوال فان دراسة التراث العـربى أو تراث القبائل العربية الجاهليـــة بمعزل عن دراســـة أسلافهم من هذه القبائل المندثرة أمر غير مجـــد وغير علمي خاصة اذا ماعرفنا ان ثراث المندثرين ، قد تواتر كالعادة فتوارثه الاحفاد من العرب العاربة أى ماتعارف على تسميتهم بالجاهليين كما حلالهـم ان يتسموا ويتميزوا . فمثلا ظلت تقويمات المتعربة الاول أو البائدة سارية لدى الاحفاد حتى الى مابعد الاسلام ، بل والى اليوم .

فظلت اســماء شـــهور قبائل ثمود يجـــرى استعمالها فى جنوب الجزيرة العربيــه حتى وقت لاحـــق للاســـلام . هـــــذا رغم ان نصـوص المسند كشفت عن أن التغيير الوحيد الذى طرا على تقويمات وأسماء الشهور العربية أو الهجربة لـم يقع الا فى عام ١١٥ قبل الميلاد ، اذ بدأ ظهـــور أول تقـــويم ثابت تعاملوا به حتى قبيل ظهـور الاسلام .

من أسماء الأشهر التى ظلت سارية منذ العرب البائدة حتى وقت ظهور الاسلام وهى فترة تصل الى أكثر من ألفى عـام شـهور : ذى حجتن أى «ذو الحجة» ومعناه شهر الحج ، وذو تمنع ، وذو أثرات ، ومؤتمر ، وربى ، وعادل ، وناطل ، وورنه وموجب ومورد ، وهوبل ودابر ، وذى يمر ، وهو شهر رمضان أول شهور السـنة عند المتعـربة أو العاربة المندثرين اما شهر موجب فهـو ما سمى شهر محرم ، وموجرهو شهر صفر .

اما الشهور التى ثبت استعمالها قبل الاسلام وبعده فهى المحرم وصـفر وربيع الاول والثانى وجمادى الأولى وجمادى الاخرى ورجب وشـعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة ويقال أن اسماء هذه الشهور جاءت مستمدة من احـداث أو شعائر أو انتقالات حضارية رؤى تمجيدها وحفظها .

كما ينسب لكلاب بن وبره آنه اول من سماها ، وكان منها الاشهر الاربعة الحرم أو المحرمات التى اتفـق عليها لتحريم الغزو والحـروب والقتال والمنازعات بعامة ، لهذه القبائل المتطاحنة لدرجـة الابادة .

وكان أهم اكتشاف أوضحته نصوص المسـند بالنسبة للاهوت وتقويم الجزيرة العربية بقسميها

الشمالى العدنانى ـ الرعوى ـ والجنوبى القحطانى ـ الزراعى ـ هو انه بينما كانت القبائل الحجازية أو العدنانية تتبع الاله والتقـــويم القمـريين كان القحطـانيون ســكان اليمن يعبـــدون الشمس ويتعـــاملون بتقويمها ، بأيامها ، وأســـابيعها ، وأشهرها ٠

أى ان الانتقال الحضارى الذى تمثل فى ظهور الملك الاب الذكر ، جاء عند اليمنيين بشكل أسبق من سكان الحجاز البدويين الرعويين ، ربما بأكثر من ألف عام ٠

فبينما كانت الالهة « عثتر » أو عشترت الهـا ذكرا فى اليمن كانت لاتزال انثى عند الشماليين ولذلك كان القمر فى اليمن هو الاله الاب وكبير الالهة ٠

ومن أسماء القمر عند العرب البائدة « ســين » وهو نفس اسمه عند السومريين اللاساميين ويعتقد البعض ان البائدة اخذوه عنهم ، وشهر كان مـــن أكثر أسمائه شيوعا ، خاصة فى الحبشة .فكلمـــة شهـــر ، هى أحد اسماء الاله القمرى ٠

فى العربية مايشير الى انها كانت اســـما للالهة القمرية بعد انتقالها الى الطور الثانى أى طور الاله الاب الذكر ٠

ويرى البعض ان لفظة « قمر » كانت الاسم المتأخر الذى أخفى به الساميون اسم « رب الارباب » أى بعد ان تحولت الآلهة القمرية الانثى الى اله ذكر اب بظهور الملك الالهى الذى وقر على اعتبار أنه الهيئة الذكرية للقمر فخوطب من اتباعه ومن عبدته « وداب » أو « ابود » كذلك فقد اصبح من القابة « عم » وهو ما يشير اكثر الى الانتساب الابوى ٠

فالاله « ود » أو « ود شهر » معناه « ود القمر » ويرى البعض أن لفظة قمر « هى تسمية متأخرة اطلقها الساميون من أبناء الجيل الثانى لاخفاء الاسم الحقيقى لرب الارباب » ٠

كذلك فقد تسمت باله القمر قبائل كهلان باليمن اذ أن من القاب اله القمر فى نصوص العرب البائدة فى اليمن اسم « كهل » كما انه عرف بهذا الاسم « كهل » فى النصوص أو النقوش التى خلفتها وتركتها القبائل البائدة للعرب الشماليين فى الحجاز ونجد أو السعودية اليوم ٠

كما كان من القابه عند هؤلاء البائدة « صدق وصديق وحكم وحكيم وعلم وعليم ورحمن ورحيم ونهى ومحرم » والاسم محرم وجد بكثرة فى النصوص الحبشية ٠

وكان الاسم « ود » من أسماء الاصـــنام التى أوردها (١) القرآن . كذلك ورد فى شعر للنابغه الذبيانى :

حياك ود وانى لايحل له
لهو النساء وان الدين قد عزما

كما تســمى باســم ود العــرب الجاهليون ـ عبد ود ـ وعبدته قريش وكانت توعده ادا وفى احدى الروايات التى تنسب للاهوتى العربى ابن الكلبى ان والــد مالك بن حارثة كان يعطية اللبن ويكلفـــه بالذهاب الى الصـــنم « ود » ليسقيه ويستغفره فكان مالك يشرب اللبن سرا ويبخل به على الصنم أو الاله القمرى « ود » .

ووجد فى النصوص المعينية والسبئية والثمودية كتابات مثل « أموت عـــلى دين ود » ويا الهى ود احفظ لى دينى وأيده .

وذهب البعض استنادا الى لفظة ود العربية التى ماتزال متواترة بمعنى المودة او التودد الى أن هذا المعبود الذى هو القمر يعنى الود أو التحية ، كما وردت صراحة فى أشعار النابغة الذبيانى « حياك ود » .

---

(١) سورة نوح آية ٢٣ .

فالاله القمرى ود ، هو أيضا الاله « المقة » ومن هذا الاسم جاءت تسميه مكـــة ، كما انه عـــرف وبالتحديد فى ممالك سبأ وكذلك عـــرف بنفس اسمه السومرى الالف الرابعة ق ٠ م « سين » عند الحضرموتيين ، كما انه عرف بأسم أو لقب « عم » عند القتبانيين أو العمونيين ، ومن اســـمه جاءت تسمية العاصمة الأردنية عمان ٠

وكان هذا الاله القمرى سين ابن الالهة عشترت فى كتابات المسند الحضرمونية ٠

كما كنى عن الالهالقمرى « المقة » بثور فىاليمن أى الاله « ثور » وكان هذا هو اسمه فى كتابات المسند كما ان من ألقابه ثور بالاضافة الى أن الثور كان حيوانه المقدس ووجدت صور رأس الثور فى الجزيرة العربية بكثرة شديدة ٠ فكانت الثيران من أكثر الحيوانات التى يضحى بها لاله القمر « المقة » كما أن قبائل وعشائر باسرها تسمت باسم « ثور »

كذلك كان من اسماء أله القمر اسم « الساهور » أو « السلطيط » أو « التغرور » فلقد عرفه بهـذه الاسماء عرب الجاهلية ، ووحد مع الله تحت نفس هذه الاسماء فى شعر أمية بن أبى الصلت ٠

ومما يضاعف تأكيدنا فى ان ثمـــة انقـــلابا حضاريا أو اجتماعيا من مرحلة الامومة الى مرحلة

الابوية أو البطرقية ، قد يقف فاصلا متمما لنزاعى القبائل البائدة أو العاربة وخلفائهم من العـــرب العاربة أو العـــرب الجاهـليين ، ويتمثل هـــذا الانقلاب الحضارى ، فى أن النصوص التى خلفتها القبائل المندثرة والتى ترجع الى منتصف الالف ،

الثالثة قبل الميلاد جاءت فاكـــدت ان اهم واعظم الالهة السامية مثل ايل وبعل ، وأدون أى أدونيس وملك اله ثمود ، ومولك الالهـــة الومس عنـــد العمونيين ، كانت تطلق عليهم بصفتهم آلهات اناثا وأصبحت بعد ذلك تطلق عليهم كالهة ذكور لدى كل الشعوب والقبائل السامية فى آسيا الغربية بل وآسيا الصغرى كما هو معروف ٠

ومن المهم معرفة انه بالقـــدر الذى حفظت به نصوص المسند لعرب اليمن البائدة الذين توارثهم القحطانيون وهم قبائل عاد وطسم وجديس ورائش كذلك فقد حفظت النصبوص الثمودية واللحيانية والصفوية ، الهة ومعتقدات قبائل الشمال المندثرة (الصفويين) ٠

ومما جاءت به النصوص الثمودية ـ فى نجـد والحجاز ـ تركيزها على اعظم الألهه الساميين بعامة وهو الاله ايل ، متل « يعـــذر ايل ـ صـلم ايل ـ عزرائيل ـ سعد ايل ـ ود ايل » ٠

وكذلك اسماء الهة الخصب « عثتر » الى جانب الالهة » « تيم » و « يغوث » و « هـدد » أو الاله الفينيقى حداد اله المطر ، وشمس ، وعزيز والألهة « منى » أو مناه ، وكهل واللات ، وجد أى السعد وكذلك الاله « رضى » الذى يقول عنه العالم العراقى الكبير الدكتور جـواد حسنى أنه هـو ماوورده الميثولوجيون أو الاخباريون العرب ، باسم «رضى» أو رضاء ، وانه كان فى منزلة عشترت عند العرب المتاخرين الجنوبيين ٠ وايضا وجدت اسماء ملوك الرها المندثرين ، الذى تسموا باسماء الالهة مثل أبجر ومعن ، بمعنى النعيم أو ال « منعم » وعزيز وعبد الملك و « ملك » الذى كان في منشئه اسـما لاله ثم أصبح لقباسياسيافيما بعد كما هو واضح ٠

كذلك جاءت الكشـوف اللحيانية والصفوية باسماء الالهة والالهات التى عرفها العرب الجاهليون فيما بعد ، مثل « اللات ـ العزى ـ مناه ـ عوض ـ ديدان ـ بعل سمين ـ احرام أو التحريم ـ جـد ـ صالح ـ ذو الشرى ـ رضى ـ رحيم ـ سـمع ـ نصر ـ نسر ـ مناف ـ ديان » وهكذا ٠

وكانت الفرس أو المهرة من اقدم الحيـوانات المقدسـة للشمس عند هؤلاء البائدة من قدامى الساميين وهو ما تردد طويلا فى الشعر العربى ،

من جاهلي ومعاصر .

كما كان للانباط سكان البطراء آلهة مثل « ذو الشرى ، واللات (وكانت آلهة مؤنثـــة أم لجميع الالهة) ومنتوا أو مناه ، وهبل ، وشـيع القوم ، أو حامى القوم » وهو اله القوافل ، والســـواقين فيما بعد الى اليوم .

وكانت آلهة ممالك تدمر فى اليمن هى الالهة بل أو بعل أو الناقة ، واله القوافل « شـــــيع القوم ، وشمس ، واللات ، وايل » كما كان مـن القاب وصفات أو نعوت هذه الآلهة التى حفظتها نصوص المسند « رب العالم » و « الله المحسن » و « رب العالمين » و « الرحمن » و « المتجبر » الخ

ويلاحظ عند مقارنة نصوص المســـند التى خلفتها القبائل العربية البائدة بقسميها اليمنى والحجازى أو الجنوبى والشمالى ، مع ما تناقلـــه الرواة والميثولوجيون والاخباريون العرب ، انه لم يكن هناك اختلاف كبير طبعا بين التراثين ، المدون والشـــفاهى ، ومعنى هـــذا ان القبائل المندثرة أورثت لاحقتها من العرب العاربة أو عرب الجاهلية الاولى تراثها فاضافت الاخيرة اللاحقة عليه .

كما يلاحظ ان الاختلافات ليســـت كبيرة بين تراث المنـــدثرين وتراث الســــومريين فيما بين

النهرين عن طريق وسـاطة البابليين والحيثيين،
كما يقول أرنولد توينبى وغيره ٠

كذلك يمكن ملاحظة ان تطور انقسم الجنوبى
اليمنى القحطانى ، عن شقيقه العدنانى والحجازى
فى نجد كان أسـبق وانضـج ٠ اذ ان اليمن
واصلت انتقالاتها من عبادة الالهة الانثى القمرية
الى الانقلاب ـ الشمس الذى تسـمى به ملوكهم،
مثل عبد شمس بن يشجب بن سبأ ٠

أما الملاحظـة العامة أو المجملة فتتركز حول
عبادة تلك القبائل المبكرة التى ترجع الى ما قبل
الالف الثالثة قبل الميلاد ، للالهـة الفلكيـه
أو السماوية مثلها هذا مثل بقية الاقوام السامية
الزراعية فى مصر والعراق والشام وفلسطين ٠

كما يلاحظ بشكل أخير ، أن معظم هذا التراث،
مايزال يواصل نموه وسريانه فى تراثنا المعاصر أو
فى مجمل حياتنا اليومية ، الآن وفى هذا المكان ٠

الفصـــــل الســـادس

« الغيب والقدر والدهر فى هذا التراث »

يستوقف المتصدى لدراسة التراث الفولكلورى العربى المعاصر ، أول مايستوقف ذلك المدى الهائل المتمثل فى الاغراق فى القدرية • والقسمة والنصيب وأفعال الزمان ومكائده وهى القدريه التى قد لايبرأ منها نص أو فكرة ، شفاهية ، خاصـــة فى تراثنا الفولكلورى المصرى والعربى بعامة •

ولقد وصل الامر الى حد أن القـدرية والدهرية أصبحت ملمحا مميزا لتراثنا الفولكلورى ، أى انه ما من جزئية أو « فكرة أو موتيفة » تصادف باحث فولكلور فى أى منطقة فى العالم عن القدر والقدرية ، الا ويمكن له ارجاعها الى موطنها الاصلى الام ، وهو التراث السامى بعامة ، والعـربى بشـكل أخص والاسلامى بشكل أكثر دقة •

ولقد سبق لموضـوع القـدر أن احتل منزلـة واسعة من الجدل والبحث خاصة عندما يعرف بعلماء «الكلام» من العرب المسلمين فيما بعـد ، خاصـة المعتزلة ، وغـيرهم أو ماتفـرع عـنهم مـن الشيع مثل الجبرية ، والصـابئة ، والمختلطـة ، والقدرية ، والمرجئة والوعدية ــ نسبة الى الوعد ــ أو القدر والمكتوب ، وكذلك الشيعة والخوارج •

وكان المعتزلة يلقبون بالقدرية وبشكل مجمـل فقد كان القاسم المشترك الاعظم عنـد تلك الفرق

وغيرها ، هو القدر ، فقالوا ان « لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر ، خيره وشره »

ولقد تعاظم دور هذه الشيع والفرق ، حتى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عنهم «القدرية مجوس هذه الامة» .

والقدرية والدهرية والوعيدية والمنايا ، أفكار مترادفة وردت بكثرة شديدة جداً سواء فى الشعر المتتسب الى انقبائل العربية البائدة أو عندلاحقيهم من العرب الجاهليين ثم الاسلام وكذلك ترد بكثرة شديدة في الآلاف المؤلفة ، بل الملايين من المواويل والشعر الشفاهى الشعبى المعروف بالمواويل الحمراء ، أى تلك التى تتصل مواضيعها بأفعال ونكائد الدهر والزمن وتقلبات الدنيا والايام وامساكها بالمصير الانسانى .. الخ

ولقد عرفت شعوب غرب آسيا ـــ الابدية التى أطلق عليها العرب الجاهليون مرادف الدهريه ، والدهر ، والمنايا ، والحتف ، والآجال ، والحمام ، والمنون ، والقضاء والقدر ، والمقدر والزمان والايام والليالى والخطوب .

ولقد وحد الساميون الاوائل من القبائل العربية البائدة ، بين القدر أو الدهر أو المنايا وبين الله ، وكذلك تسمت آلهتهم باسم «منى» ومناة وهى الاخت

التالثة من بنات الله الثلاث كما كانت معروفة بهذه الصفة والاسـم منـذ البابليين الاوائل «٢٨٠٠ ق٠م» وعنهم أخذتهابقية الشعوب والقبائل السامية خاصة العرب الجاهليين فيما بعد ٠

وتؤدى لفظة « مناه » معنى القدر ومنها «المانى» بمعنى القـادر ، نسـبة الى بن مـانى ، الذى قتلـه الملك « بهـرام » ملك الفـرس وقال له : « أنت الذى تقـول بتحريم النكـاح يستعجل فناء العالم » ٠ومنها جاءت تسمية مذاهب «المنانية» أو «المناويه» نسبة الى «ماني» وكان راهبا بحران وأحدث «دين المنانية» والمنية تعنى الموت أو ان الموت مقدر محسوب ، ويبدو أن لفظة «منية» كلمة سامية مشتركـة ، وردت فى أغلب لهجـات الشعوب والقبائل السامية،ويرى البعض انها مرتبطة بالالهة البابليه «مامانتو» وعنهم أخذها الكنعانيون ولقبوها «منى» والالهه الثمودية «منوات» ثم «منات» عند العرب الجاهليين ، ومنها «عوض» وهو اسـم صنم ، وحده الشعراء مع الدهر ، و «عوض» كان اسم صنم أو معبود ، قبيلة بكر بن وائل ٠

بل ان المستشرق « نولدكه » يرى ان كل هذه المترادفات للقدر والمنون والدهر والموت ماهى الا أسماء لآلهة دهريه «وليست أسماء أعلام» ٠

ولقد وحد قدامى العرب خاصة القحطانيين سكان اليمن ، بين الدهر وبين الموت الذى يلتهم الرجال، كما جاء في قصيدة تنسب «لامرؤ القيس» بن حجر المقصور بن الحرث آكل المرار الكندى ، يذكر ذا القرنين الصعب ذى مراثد الحميرى :

ألم يخبرك أن الدهر غول
ختور العهد يلتهم الرجالا

وروت أساطير الحمريين وأفاضت عن بحث ملوكهم عن ماء الحياة الذى يهب الخلود ، ومنها مصاحبة الخضر لذى القرنين فى رحلة عبورية جابا فيها ربوع الارض وعندما وافت «المنية» ذا القرنين دعا الخضر وأنشد :

لما رأيت من المنون وعيدا
قوضت رحلك سحره تجديدا
هتكت خطوب الدهر عزك هتكة
أمسى حسامك دونها مغمودا

سيموت من تنسى المنية يومه
وتنال بنت الدهر منه بعيدا

ومن أشعارهم التى تنسب لأحد ملوكهم « عبد المسيح بن بقيله» الذى وجد على قبره أنه عاش مائة عام وقتل فى مبارزه :

(١) حلبت الدهر أشطره حياتى
ونلت من المنى بلـغ المـزيد
وكافحت الامـور وكافحتنى
فلم أخضـع لمعضـــلة كؤود
وكـدت أنال بالشرف الثريا
ولـكن لا سبيل الى الخلود

كما أن من الأشعار المنسوبة لابنه «مضاض بن عبد المسيح» في رفضه وزهده عيشة الدنيا : (٢)

منزلا قـد تحكم الدهر فيه
ليـس للنازلين فيه ثبـات

وتكشف قبوريات ومراثى أولئك الملوك الحميريين، عن موقف غريب معاد فى جوهره للدهر كمرادف للموت · بل كثيرا مايسخط من قضية الباطشين التى تذهب بالانسان وتغيبه ولـكنه كثـيرا مايغـرقه التساؤل ، فبأى حق يكون دوام الدهر متمثلا في تعاقب الليل والنهار دون الانسان ، وهو فى النهاية يستصغر من شأن الدهر وعشوائيته ويصفه بأنه غير جدير بالمعاتبة أى ان الدهر دون مســتوى العتب ··

أقول وقد فاضت بعينى عبرة
أرى الدهر يبقى والاخلاء تذهب

(١ ، ٢) الاكليل ١٧٨ — ١٨٩

اخلاى لو غير الحمام أصـــــابكم
عتبت ولكن ما علا الدهر معتب

وفى احدى أساطيرهم ، مايشير الى أن سام ابن نوح أبو كل الاقوام السامية كان جزوعا مرعوبامن الموت كما يقول وهب ، «وكان سام جزوعا من الموت ، فسأل نوح الله ألا يميته حتى يســأل الموت ــ أى حتى يطلب سام نفسه الموت فعاش أربعة آلاف عام ، بنى ألفين وعمر ألفين الى أن سئم الحياة واعتل فسأل ربه الموت فمات »

وعندما سئل سام بعد موته عن الكيفية التى رأى بها الحياة قال :

«كبيت ببابين دخلت من هذا وخرجت من ذاك»

ويورد «الساجستانى» تضمينة مردافةللفكرة السابقة ، نسبها الىنوح «فبعد أن عاش نوح ١٤٥٠ سنة، أتاه ملك الموت وسأله : يانوح ياأبا كبير الأنبياء وياطويل العمر ويامجاب الدعــوة ، كيف رأيت الدنيــا؟ قال : كبيت له بابان : دخلت من باب وخرجت من الآخر »

ومما تناثر حول خرافاتلقمان ونسوره السبعة وتشبثه بالخلود ، ينسب لشـــاعر يدعى « يثم انلات» شعرا يقول فيه :

رأيت الفتى ينسى من الدهر حقه
حذار لريبالدهر والدهر آكله

ولو عاش ماعاشت للقمان أنسر
لصرف الليالى بعد ذلك يأكله .

ولقد وحد العرب الأوائل فى أشعارهم وأقوالهم بين نبيهم أو الههم الآب «هود الذى كان قدأرسل الى قبائل عاد البائده» وهو الذى سـلط على قوم عاد طوفان الرياح وأبادهم من الوجود ..

وفى احدى القصائد الاسطورية التى تنسب الى امرأة كاهنة تدعى هزيله أجابت قومها حين سألوها عما حدث لقوم عاد فقالت هزيله : «سأقول شعرا وأرويه الجرادة تسمعكموه » وقالت :

ان عادا آثرت حقا على الرشد الصدودا .
لم تقل فى غيها حين عتت قولا سـديدا .

بل طغت بغيا وقالت لن نطيع الدهر هودا .
عابدين من ضلال صنما يدعى الصمودا .

وفى هذا الشعر يبدو واضحا توحد النبى ـ الاله «هود» بالدهر الذى خلف اسمه على قصور ومعابد وقبائل «دهر» والذى من اسمه اشتق «جبل ضهر» فيقال بأن « من ضهر خرج سبعة فراعنة حكموا مصر » .

بل ان الاسم الكامل لهود قد يزيد الامر وضوحا:

فهو «هود بن عبدالله (1) بن الخلود بن عاد» .

والغريب أن قائل هذا الشعر — التالى — يتحسر على أن «بنات الدهر» رمينه غيلة فأصبن منه مقتلا ، دون أن يكون فى مقدوره الرد على مغتاليه .

«وكانوا يصفون الدهر بالرامى أى ذلك الذى لايخطىء الرماية» .

رمتنى بنات الدهر من حيث لاأدرى
فما بال من رمى وليس برام
فلو أن ماأرمى بنبل رميتها
ولكنما أرمى بغير سهام
وأفنى ولا أفنى من الدهر ليله
وما يفن ما أفنيت ملك نظامى

كما أنهم تصوروا الدهر ساقيا يسقى الانسان كأس المنايا :

اسلموا للمنون عبد يغوث
وبعض الكهول حولا يراها
بعد ألف سقوا المنية صرفا
فأصابت فى ذاك سعد مناها

ووسع العرب الجاهليون فى مفهوم وخرافات الدهر فقالوا : «يد الدهر» و «ريب الدهر» ، «عدواء الدهر» و «غلواء الدهر» كما قالوا :

---

(1) المحبر ص ٣٨٥ .

« ماهى الا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ومايهلكنا الا (١) الدهر » .

وعلى هذا أنكر هؤلاء الدهريون الخالق والبعث وان كانوا قد توسلوا من جانب آخر الى الدهر والزمن والابديا ، والغريب انهم كثيرا ماارتدوا واندفعوا يسبون ذلك القادر أو المعطى أو « المانى » فكانوا اذا وقعت بهم الكوارث يسبون الدهر ويلعنونه .

ومن هنا يتضح أن الدهر هو ذلك الاله القادر المهيمن والمتحكم فى المصائر والاعمار واستمرار العالم .

وفى الاحاديث النبوية يتوحد الدهر بالله تمام التوحد وذلك حين نهى النبى بشدة عن لعن الدهر: «لاتسبوا الدهر فان الله هو الدهر » .. أو فان الدهر هو الله .ومن حديث: «يؤذينى ابن آدم يسب الدهر ، وانما أنا الدهر .. أقلب الليل والنهار» (٢)وكان أصحاب الوبر بعامة من عرب وعبريين لا يؤمنون بالبعث والقيامة وهى تلك الافكار التى اكتملت مؤخرا فى الميثيولوجيا السامية خاصة عند البدو

---

(٢) الجاثيه آية ٢٤ .

(٢) تاج العروس الجزء ٣ ص ٢١٨ ، اللسان ، الجزء ٥ ص ٣٧٨ .

والرعاة : فقالوا «فانما حياتنا ظل يمضي ولا مرجع لنا بعد الموت لانه يختم علينا فلا يعود أحد (١) » ·

وقال البعض ان الدهر اسم من أسماء الله الحسنى وكذلك فقد تبدت هذه العقائد القدرية عند أغلب فحول الشعراء الجاهليين، مثل أمية بن أبى الصلت وزهير بن أبى سلمى ، ولبيد ، وسويد بن عامر المصطلقى وهو القائل :

لا تأمنن وان أمسيت من حرم
حتى تلاقى ما يمنى لك المانى
فالخير والشر مقرونان فى قرن
بكل ذلك يأتيك الجديدان

والشاعر أبو ذؤيب الهذلى ، الذى قال :

أمن المنون وريبها تتوجع
والدهر ليس بمعتب من يجزع

ومن تصوراتهم التى أنطقوها الحيوانات والطيور، حول الموت وحلول القضاء، (٢)، مافسر سليمان به غناء البلبل « أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء» والهدهد يقول ·· «اذا نزل القضاء عمي البصر » وكل حي ميت وكل جديد الى زوال و «لدوا للموت وابنوا للخراب » والنسر يقول : « يا ابن آدم عش

---

(١) سفر الحكمة (الابوكريفا) فصل ٣

(٢) البداية والنهاية ·

ماشئت فانك ميت » .

ويقول الطبرى (١) : « ان أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب ، فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن، ويقال ان القلم سأل الرب قال : يارب وما اكتب؟ قال اكتب القدر ، فجرى القلم فى تلك الساعة بما كان وبما هو كائن الى الابد» .

فيقال ان «الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » .

ولقد دارت حول الملك النبى « داود » عديد من الاساطير التى تكشف جزعه من الموت ، مثل سلفه « سام ابن نوح » ، وترد هذه الاساطير والخرافات فى صور ومصادر كثيرة ومتنوعة منها أن آدم سأل الله عن « داود » فقال له الله : هذا ابنك داود . ولما سأل داود عن عمره ، قال له الله ستون سنة ، فقال آدم : رب زده فى عمره فرفض الله قائلا : لابل تزيده انت من عمرك ، ولما كان عمر آدم ألف سنة فقد وهب لداود من عمره أربعين عاما فكتب الله عليه بذلك كتابا ، وأشهد عليه الملائكة، لكن عندما حضرت المنية آدم وأشرف على الموت جعل

---

(١) تاريخ الطبرى ص ٢٤٨ وما بعدها ، المعمرون والوصايا .

يخاصمهم في الاربعين سنة التى كان قد وهبها لداود ·

وتنفرد احدى أساطير «الخضر» · معللة السبب في أن الخضر حي خالد لا يموت لانه هو الذى قام بدفن جتمان آدم ، ولهـذا أصـبح الخضر أطول بني آدم عمـرا · و « الخضـر » أو « الرجل الاخضر » هو الذى قال عنه الرب في العهدالقديم: «أنت الخضر وكلما مست قدماك الارض اخضرت» ·

ويقال آنه عندما حضرت الوفاة آدم ، جمع بنيه وقال لهم ان الله منزل على الارض عذابا فليكن جسدى معكم بالمغارة ، حتى اذا هبطتـم ، فابعثـوا بى وادفنونى بأرض الشام ، فكان جسده معهم الى أن بعث نوحا ، وضم الجثمان معه ، الى أن وقع الطوفان الذى أغرق الارض زمانا ، فجاء نوح حتى نزل ببابل وأوصى بنيه الثلاثة، سام ويافث وحام ،أن يذهبوا بالجثمان الى المكان الذى أمرهم أن يدفنوه به، فقالوا: « الارض وحشة ولا أنيس بها،ولا نهتدى الطريق» فقال لهم نوح: «ان آدم قد دعا الله أن يطيل عمر الذى يدفنه الى يوم القيامة فلم يزل جسد آدم حتى كان «الخضر» هو الذى تولى دفنه « وهـو يحيا الى ماشاء الله أن يحيا »

وتوبط الميثولوجيا العربية بين أساطير الخلـق والبدء وبين أفكار القدرية والجبرية ؛ والدهر الذى

وحده وعبده الساميون بعامة، ثم العرب الجاهليون خاصة الذين عبدوا الدهر والقدر والمانى أو المنايا فى هيئة أصنام ، فكان الصنم : منايا أو مناه ، من أقدم المعبودات الجاهلية .

ويذكر هشام الكلبى ، ان صنم الالهة مناه ،كان منصوبا على ساحل البحر ، (١) بين مكة والمدينة، وكان معبودا لقبائل الأوس والخزرج من أهل يثرب .

ويضيف ابن الكلبى ان العــرب جميعًا كانوا يعظمون الالهة « مناة » ، ويذبحون لصنمها ، كما أنهم تسموا باسمها « عبــد مناة وزيد مناة وتيم مناه » .. الخ .

والالهة «مناة» من منشئها ، الهة الموت والقدر عند البابليين العراقيين وعرفت بنفس اسمها العربى عندهم ، «مامانتو» (٢) ، وعن البابليين عرفهــا الكنعانيون ، والاراميون ، والانباط الى ان وصلت العرب فيما بعد فعرفوها بنفس الاسم أو مايقاربه «مني» ، وذكرت «منى» متوحدة مع الاله «جاد» اله قبيلة جاد فى العهد القديم (٣) .

---

(١) البكرى ٩٥٦ — الأصنام الجزء ١٣ — تاج العروس — الجزء ١٠ ص ٣٥١ .

(٢) وكان البابليون يتخاطبون معها باسم « ويامناه يا الهة الموت والقدر أو يا أيها الروح الخيفة وملك الموت » .

3 Babylonian — Lit. P. 110

ويشير الجمع بين هذين الالهين ، منى وجاد . الى ارتباط المنايا والاقدار بالتنبؤ ومعرفة المستقبل ، الذى ارتبطت المعرفة به بالاله «جد» او «جاد» والذى من اسمه تسمت ة ائل جاد العبرية .

كما ان الاله جد أو جاد كان من آلهة القبائل الثمودية المندثرة قبل منى أو مناة ، وكهل . الخ . ومن اسم جاد تسمى الاله «بعل جاد» عند اليهود والأراميين والعرب الشماليين فى سوريا وكان يعرف باله السعد والحظوظ والمستقبل عامة .

ومن هنا يأتى ارتباطه بالآلهة الدهرية والقدرية . ومن هذه الآلهة الدهرية القدرية آلهة القمر السبئى نسر أو نسور . الذى ورد فى نصوص المسند والسبئية ، باسم «بيت نسور» بل لقد أطلق على اهل سبأ بعامة « أهل نسور » ويبدو انه كان لهم مذهب دينى شبه مميز ــ نسبة الى عبادة النسر او النسور ، وسمى معه أيضا أحد رموز السنة السبئية المتأخرة « ذى نسور » .

وتشير الاسطورة التى اوردها عبيد بن شرية الجرهمى ، عن الحكيم لقمان بن عادصاحب النسور او « ذى نسور » الذى ارتبط موته بفناء أنسره السبعة ، وكانت أسماء هذه النسور على التوالى :

المصون وعوض وخلف ومغبغب واليسر أو الميسرة — أى الحظ — وأنسا — أى لقمان الانس — وكان سابعها هو النسر لبد . وفسر عبيد الجرهمى « لبد » بمعنى الدهر ، بل ان لقمان نفسه عرف « لبد » بالابد أو الابدية .

فحين وافت المنية ذلك النسر السابع «لبد» ، وسقط مشرفا على الموت ولم يطق «لبد» أن ينهض ، وتفسخ ريشه ، هال ذلك لقمان هولا عظيما ، ووقع موته منه موقعا جسيما وناداه : انهض «لبد» انت الأبد وأنشد لقمان يبكى نفسه :

موتى أنى أموت اليوم يالبد
وحسرتى أن قد تعرم الابد
فطر كما كنت سالما أبدا
تحيا ونحيا معا ونحتفد

ويلاحظ فى الاسماء السبعة التى أطلقها لقمان على نسوره السبعة انها من الاسماء التى تطلق على الخلفه والذرية ، مثل « خلف » و « المصون » و « عوض » وعوض أيضا اسم للاله الجاهلى — القدرى — عوض .

كما يلاحظ أن الاله القمرى نسر الذى يتوحد بالدهر والزمن ، هو ماأصبح رمزا قوميا لدى أغلب الشعوب العربية والسامية عامة .

كذلك فانه مما يثير الالتفات ، تلقيب لقمان ،

لنسره الخامس باسم الميسر ، أو الميسرة ، وهي كلمة مرادفة للحظ والسعد ، ومنهـــا جاء الميسر بمعنى انقمار .

ومن المعروف عن المقامرة «انها نوع من التكهن والاستشارة ، انها جواب الآلهة للسائل» ولعب الميسر كان فى منشئه ، شعيرة فلكية لاهوتيـــة مثلها فى هذا مثل القرعه .

فيقال انه كان هناك اعتقاد شعبى شـــائع لدى المصريين القدماء، مؤداه أن الايام الخمسة النسيئة المنتزعة من السنة المصرية القديمة بحسب التقويم الفرعونى السنوى ، ماهى الا الايام الخمسة التى كسبها الاله تحوت أو هرمس .. اله الكتابة ، حين لاعب الالهة القمرية الام ، ايزيس الدومينو أو ـــ السيجة ـــ وكسب منها ، وكانت هذه الايام الخمسة بمثابة ميلاد ـــ للآلهة المصرية الخمسة، أوزوريس ، حورس ، ست ، ايزيس ، نفتيس .» فاصبحت بعد ذلك بمثابة اعياد سنوية ـ خارج الزمن أو الدهر ـــ يجرى الاحتفال بها فى جزيرة البيت المضىء التى عـــرفت باســـم فاروس وهى مااصبحت مدينة الاسكندرية فيما بعد .

والذى أود توضيحه ، هو ان ثمة علاقة دينية بين لعب القمـــار أو الميسر ، وبين التقويم الفلكى

اللاهوتى ، منذ فترات مبكرة جدا عند أغلب الشعوب الاسيوية ٠

وقد يلقى المسعودى تفسيرا أوضح ، للعلاقة المبكرة بين الميسر أو لعب المقار أو الزهر ـ الطولة ـ وبين ـ اللاهوتى ـ الفلكى أو الزمن الذى هو الدهر ، يقول : « وقد ذكر أن أردشير بن بابك ، أول من صنع النرد ، ولعب بها ، وجعل بيوتها اثنى عشر بيتا ، بعدد الشهور ، وجعل كلابها ثلاثين كلبا ، بعدد أيام الشهر ، وجعل الفصين مثلا للفوز وتقلبه بأهل الدنيا » ٠

وكان منوطا بالاله هبل ، الذىاستقدمهالكاهن عمر بن لحى الجرهمى، ونصبه فى جوف الكعبة ، ضرب القداح ، وما من أمر قام به العربى الجاهلى ، لم يستشر فيه هبل ٠ فكان فى جوفالكعبة ،قدامه سبعة أقداح ، مكتوب فى أولها «صريح» والآخر «ملصق» ، فاذا شكوا فى مولود أهدوا اليه هديه، ثم ضربوا بالقداح فان خرج «صريح» ألحقوه ، وان خرج«ملصق» دفعوه فكان لكل مطلب قدح ـ قدح على الميت ، وقدح على النكاح ، وقدح للاختصام والسفر والعمل »

ويبدو أن الجاهليين كانوا قد استقدموا صنمه، من خارج الجزيرة العربية ، ويرجح أنهم جاءوا به من العراق، اذ أن تمثاله بحسب وصف ابنالكلبى

كان «من عقيق أحمر على صورة انسان ، مكسور اليداليمنى ،أدركته قريش فجعلت له يدا من الذهب» وكان قربان هذا الاله مائة بعير .

ويبدو أن العرب الجاهليين قد أحلوا لشعائر الحظ والميسر والبخت أن تتحكم وتشرع فى معظم حياتهم وأفعالهم ، وهو مانهى عنه الاسلام بعد ذلك ، مثل ماكان يعرف عندهم بالبحيرة والسائبة والوصيلة والميسر والحام والاستقسام بالازلام ، وكانت تشريعاتهم التى أخذ بها أصحاب الوبر ،غير تلك التي اختصت بأصحاب الحرث أو الزرع ، فكانت البحيرة والسائبة والوصيلة والحام،شعائر متصلة بأصحاب الوبر، كأن يسيب أو ينذر للالهة البهائم أو البشر ، فتصبح فى حكم المحرمات منافعها للرجال دون النساء » ، وهو تعبير ما يزال متواترا حتى الآن ، ويطلق على البغايا من النساء، فيقال مثلا « أن ابنة فلان سايبه » بمعنى أنها حق مشاع للرجال .

ولجأوا الى ضرب القداح أو «الاستسقام بالأزلام» فى كل صغائر وكبائر ، حياتهم ، مثل الخصومات والحرب وانتساب الاطفال وكل مايتصل بعلاقة الرجل بالمرأة .

وأطلقوا على طريقة تقسيم الذبائح اسم الميسر، والبدء والمنصيب .

وعلى هذا تحكمت الحظوظ والبخوت ، فى كل مصائر الناس •

وكانت تلك الاقداح التى كتبوا عليها «العقل» و «السعد» أو «نعم» و «لا» هى المتحكم الاخير ،فى الحروب والاغارات وحفر الآبار وتقديم الهبات واختيار الحكام والكهنة وسدنة الكعبة وهكذا •

وأغلب هذه الشعائر والافعال والمعتقدات ماتزال محفوظة متداولة فى الفولكلور المصرى والعربى عامة، منها الحكايات الخرافية التى تدور حول «خروج العقل» و «احلال السعد» و «ضرب الزهر وانكساره»، ومنها أن شعيرة ضرب الاقداح ، تحولت الى احدى ألعاب الحظ والزهر ، يمكن التعرف عليها فى الموالد الموسمية الشعبية ، فى لعبة الكيزان •

وكثيرا ماكان المتعقلون من الشعراء العرب ، يسبون آلهتهم، ويسخطون على ماتشير به من اتيان الكوآرث والخراب ، ذلك الذى يخضع بكامله ، لتلك الحظوظ العشوائية ، التى تحكم نواصيها الصدفة ، مثلما يتضح من هذه الابيات التى تنسب لامرئ القيس يسب فيها الصنم الاله ذا الخلصة ، وكان قد نهاه عن الحرب طلبا لثأر أبيه القتيل :

لو كنت ياذا الخلصة الموتورا
مثلى وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

ولا حد لخصوبة معتقداتهم التى ماتزال تتلمس طريقها خلال حياتنا المعاشه اليوم ، مثل الهامةالتى تخرج من رأس القتيل فى شكل طائر هائم مرفرف، يبتغى القصاص ، يظل يصرخ ويندب «اسـقونى أسقونى» الى أن تراق دماء مغتاليـه ، فيروى ويسكن ٠

وتتبدى هذه الفكرة أو التضمينة ، عند اليهود فى أحد أسفارهم الممنوعة ، وهـو سفر الحكمة ، ويرى البعض أن مصدرها القبائل العبرية العربية ـ بنى قريظة ، وبنى النضير ، وبنى فينقاع ٠

ومنها مايتصل بتقاليد الموت المتوارثة ، مثل «النعى» العلنى ، أى أن يركب كل ناع أو معزى فرسه ، ويصرخ بعلو صوته «أنا فلان الفلانى أنعى الميت فلان» والرثاءة أو الندابة أو النواحـة ، وما يتبع مراسيم الموت والدفن والمـأتم ، مثل شـق الجيوب ، وجنازات النساء ، وتعفير التراب ، وحلق الشعر ، وهى تلك العادات الواسعة الانتشار لدى كل المجتمعات انسامية ، بل والمصرية القديمة ،مثل احتراف الندب وسبعة أيام العـزاء ، واسـتئجار الندابات وهو ماكان معروفا لدى المصريين القدماء والعبريين والبابليين ٠

وكانوا يقولون للميت وهـم يوارونه التراب : « لا تبعد » :

يقولون ـ لاتبعد ـ وهم يدفنوني

وأين مكان البعد الا مكانيا

وكانوا يعظمون أوهم يعبدون موتاهم وأسلافهم فيحجون الى القبور ، ويحلقون شعورهم عندها ويذبحون لها ، ويعقدون المناحات والاشادة بفضائل الميت ، ويسكرون ويسكبون بعض الخمر ليشرب الميت ، ومثلهم كان يفعل العبريون « اذ كانو يخرجون حصة مما يأكلونه لتكون من نصيب الموتى » .

فكان العرب الجاهليون ، مثلهم مثل العبريين ، مفرطين في هذه المعتقدات ، ومن هنا جاء دور العراف والعائف والساحر ، وراقي الرقى والتمائم، وسائل الجن والتوابع .

وتتبدى هذه الفكرة أو التضمينة ، عند اليهود في مرحلة متأخرة ، في أحد أسفارهم الممنوعة . فالهامة التي تخرج من رأس الميت ، عندما انطفأت حياته ، وعاد الجسم رمادا وانحل الروح «كنسيم رقيق وزالت حياتنا كأثر غمامة اضمحلت مثل ضباب يسوقه شعاع الشمس ويسقط بحرها» . فالهامة هنا ، ملثها مثل « النسيم الرقيق » أو

« الغمامة » (١) ٠

كمـا أن من معتقداتهم الخرافيـــة الجاهليـــة التفرس فى وجـــه المـوتى من الاســـلاف ، وتصنيف الجن ، واحلالها بين قرنى الثور ، وهو مااتخذته الارض الام ـ بعد ذلك ـ التى تستقر على أحد قرنى الثور الالهى ٠ كما انهم أفرطوا فى اتخاذ العرافه والقيافة وزجر الطير والاحـلام وخطـوط الرمل ، وسكك الحصى،والتكهن والحدس والتنجيم، وكذلك التنبؤ والفراسة والاستقسام بالازلام عند الاصنام ، وهى فى مجملها معتقدات عرفهاالبابليون والكنعانيون والقبائل العبرية ٠

فمثلا عرفت القبائل العبرية العيافة ، بمعنى التنبؤ عن طريق ملاحظة حركات وسكنات الطيور والحيوانات ، وسموها «الشاق» ، أى شق أجساد الحيوانات والطيور لدراسةاحشائها ، واستخلاص النبوءة ، كما كان زجر الطيـور والحيـوانات فى العربية . يقابله الـ «نيحوشيه» فى العبرية ،ومنها نحش ، وحنش ، وهو مايشير الى العلاقة بين التابـوت والثعبان . وكان الكاهن يلقب بالزاجر

---

(١) الكتاب المقدس ـ « المطبعة الكاثوليكى » ـ سفر الحكم ـ الفصل الثانى ٠

والتكهن يقال له « طيرة » فى العربية والعبرية ، والتطير بمعنى التشـــاؤم والتفاؤل ، وينسب لسليمان وذى القرنين والحكيم لقمان معرفة لغة الطير ، وطرق التطير ، وامـــكانية احـــكامه والسيطرة عليه .

وكان للكلدانيين ــ العراقيين ــ شهرة لاتبارى فى معرفة أساليب التطير ، عن طريق قراءة رئة الطيور وأكبادها وأحشائها .

وكانوا يتشاءمون ويتطيرون من المـرأة والدار والفرس ، وعتبات البيوت ومداخلها ، والغراب أو غراب البين ، أو الغراب الاســود ، وحتى (١) العطاس والسعال ، كانوا يتشاءمون منه .

ولقد أجمع العرب والعبريون على اعتبار الغربان والبوم من الحيوانات النجسة المشئومة ، وسموا البومة بـ « أم الصبيان » (١) « أم الخراب » واعتبروها الهامة التى تخرج من رأس القتيل ، تحجل بلا توقف على قبره ، فى طلب الثـــأر والدم .

وترد أعظم الأســاطير المتصــلة بالاحلام ، عند

---

(١) عمدة القارىء ٢١/٢٧٥ .

(٢) اللسان ٨٠٠/١١١ . تاج العروس ٦ ــ ١٩٣ .

السامين ، فى قصص يوسف الصديق ، وكيف أن سبب مأساته مزجعها الى أحلامه ، حين «حلم يوسف حلما واخبر اخوته ، فازدادوا ايضا بغضا له ، فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذى حلمت ، فها نحن حازمون حزما فى الحقل ، واذا حزمتى قامت وأنتصبت فاحاطت حزمكم وسجدت لحزمتى ، فقال له أخوته ألعلك تملك علينا ملكا أم تتسلط علينا تسلطا » وكان أن حقدوا عليه واحتالوا ليميتوه ، حين أرسله أبوه لهم « اذهب انظر سلامة اخوتك وسلامة الغنم ورد لى خبرا » فلما أبصره اخونه قادما ، احتالوا ليقتلوه « فقال بعضهم لبعض ، هو ذا صاحب الاحلام قادم ، فالآن هلم نقتله ونطرحه فى احدى الآبار ونقول وحش ردىء أكله ، فنرى ماذا تكون أحلامه » .

وتتوالى هذه القصة ، متجمعة لتثبت صحة حلم يوسف وتفوقه على اخوته بل وبيت أبيه بعامة ، وانقاذه لهم من القحط والمجاعة .

بل أن دور يوسف فى مصر ، لم يتعد انه كان موهوبا فى تفسير الاحلام ، منها حلما خصيى فرعون رئيس السقاة ورئيس الخبازين ، ثم تفسيره حلم فرعون مصر ، فكان أن جعله فرعون نائبه « أنت تكون على بيتى ، وعلى فمك يقبل

جميع شعبى ، الا أن الكرسى ـ الذى ـ اكون فيه أعظم منك » .

كما أن الكلدانيين والعرب والعبريين تشاءموا من بعض الثيران ومن الحية والثعلب والأعور والمرأة الطامث ، والرأس المستطيلة ـ مثل الشمامة .

كما قد يتوحد « الهاتف » مع الدهر والقدر والزمن والمانى ـ بمعنى القادر والعاطى ـ والدنيا الخ . ولقد شبه العرب الهاتف بمعنى الرائى وكان العبريون الجاهليون يلقبون النبى بالرائى الذى يهتف للانسان والكهان بشكل أخص ، وهو ما قد يتطابق مع الايحاء والوحى ، وما يمكن أضافته هو ان صوت الهاتف لا يرد ، بمعنى أنه لا خيار ـ وبالتالى مرد ـ لذلك الذى يزوره الهاتف ، ويحط عليه ، ويتكشف له ، فالموعودة أو البغى التى يجيئها الهاتف ويأمرها بترك بيتها وزوجها ، والنزول الى الوعد والمكتوب ، أى أن تصبح سائبه أو ـ سايبه ـ مشاعا « للرجال دون النساء » ، ليس فى مقدورها الافلات من صوت الهاتف .

وفى شفيفه ومتولى بشكل أخص ، يزور الهاتف شفيقه فى قبرها ، بعد أن تموت ـ أو هى

تنتحر ــ ويهتف بها أن تقوم ، لتواصل قدرها وتفي ماكتب عليها ، قائلا « اللي عليك ماخلصش » وكما هو معروف ، تقوم شفيقة من قبرها ، وتعود بعد قيامها من عالم الموتى الى معاودة الحياة المخططة المقدورة لها .

فالهاتف هنا هو اله كامل ، يحقق قيامة البغي ، ولا مرد لقضائه .

فكان يمكن للهاتف ، الامر بوأد البنات ، كما كان في مقدوره منع وتحريم وأدهن .

وفي احدى الحكايات التي صاحبت مولد كاهنة قريش الأم « سوداء بنت زهرة بن كلاب » . فكان من عادة العرب وأد البنات اذا ما جاءت الى الوجود ناقصة التكوين ، كأن تكون كسيحة أو عوراء أو برصاء أو زرقاء ، ولما كانت تلك الكاهنة ، سوداء قد ولدت على بعض هذه الصفات ورآها أبوها كذلك ، وأمر بوأدها ، فارسلها مع من جهز لها في الخلاء ، وهم بدفنها واهالة التراب عليها ، سمع هاتفا يقول « لا تئد الصبية ، وخلها البرية » فالتفت الحفار فلم ير شيئا ، فعاد ليدفنها فسمع الهاتف يسجع سجعا كهنوتيا ، يمنعه من وأدها ، فكان أن عاد بها الى ابيها ، واخبره بما أشار به الهاتف ، فتركها حتى كبرت واصبحت

كاهنة قريش ، التى أنيط بهـــا بعد ذلك رؤية البنات عقب ولادتهن ، وقـــول رأى أخير فيما يتصل بوأدهن أو العكس .

ويقال أن هذه الكاهنة ، هى التى منعت وأد ، آمنة بنت وهب .

كما يقال بأن ســوداء بنت كلاب هذه كانت أول من ذكر « جهنم » فى العرب .

وليكن واضحا أن مثل هذه الافكار الميثولوجية عن جهنم والسعير والفردوس أو جنة عـــدن ، باختصار كل مايتصـــل بافكار الموت والقيامة . هى أفكار دخيلة ، جلبتها هذه الكاهنة العرافة ، وغيرها من الشعراء الجاهليين ، مثل عمرو بن لحى ، وامية ابن ابى الصلت من الشام فيما بعد القرن الخامس الميلادى .

ويبدو أن مفهوم الســاميين ـ والعالم القديم عامة عن الحلم ، كان هو بعينه الهاتف ، ذلك الذى لا مرد لأمره ، فهو الذى كان يدفع بالملوك الى قتل الاطفال الذكور ، مثلما حدث مع نماردة بابل والشام وملوك الفرس وفراعنـة مصر لقتل

الاطفال ، بحسب روايات العرب والعبريين اصحاب الوبر .

ونسب العرب الرؤى أو الاحلام أو الهواتف ، لأرواح خبيثة شيطانية ، واخرى مصدرها الالهام الالهى ، وكثيرا ما يأخذ الالهام ، شكل متنبئات أو نساء قدريات ، مثل كاهنة سبأ طريفه ، وسوداء بنت كلاب التي مر ذكرها ، ومنهن أربع فتيات ، لهن هيئة الايرينيات فى الميثولوجى الهلينى ، ينشدن نبوءاتهن بطريقة شعرية كهنوتية ، ويعرفن فى الميثولوجيا العربية بـ « صواحبات مصاد بن مذعور القينى » .

وعرفت الميثولوجيا الفرعونية « الهاتف » بحسب الرواية التى أوردها هردوت « بشأن الهاتفين اللذين يوجد احدهما عند اليونانيين ، والآخر فى ليبيا » ، وحكى هردوت عن هذين الهاتفين ، أو « الوحيين » حكايات تدور احداثها حول مصر وليبيا وفينيقيا واليونان . وفى احدى هذه الخرافات يكون الهاتف على شكل كاهنة مقدسة ، وفى رواية أخرى يكون على شكل حمامة سوداء ، لها صوت آدمى ، فيقول هردوت « طارت حمامتان سوداوان من طيبة التى فى

مصر ، فذهبت احداهما الى ليبيا ، وجاءت الثانية الى اليونانيين — وعندما حطت هذه فوق سنديانة ، أعلنت — فى صوت آدمى ، انه يجب انشاء هاتف لزيوس هناك ، وأدرك القوم أن هذا نبأ جاءهم من اله ، وتصديقا له ، أقاموا الهاتف ، أما الحمامة التى توجهت الى ليبيا ، فتقول العرافات ، انها أمرت الليبيين باقامة وحى « آمون » .

ويبدو أن أماكن التزين بالحلى والاحتفاء عامة بالاشياء ، وهو مايتبدى أكثر عند النساء والاطفال مثل العنق والأذن والأنف والجبهة والصدر ، كانت أماكن لشعائر ، ورقى وأحجبة وتعاويذ ومنفرات اعتقادا فيما يكمن فيها من قوى سحرية خفية ، تجلب البخت والسعد ، وتطرد النحس والشؤم ، فالساميون من العرب عبدوا الاشياء من تمائم وأحجار وشجر ونبات وجبال ووهاد ، اعتقادا فيما يكمن ويسكن هذه الاشياء المادية من قوى غيبية ، وعلى هذا علقوا الاجنحة اليمنى لطيور بعينها على صدور الاطفال ، واعتقدوا فى رأس الهدهد وسن القطة والذئب والخنزير ، ذات الشكل الهلالى ، نسبة الى — الهلال — أو الالهة الام القمرية .

كما انهم اكثروا من استعمال هذه الطلاسم

والرقى والمعوذات أو التعاويذ ، لدفع الاوبئة . مثل الحمى ولدغ العقارب والحيات ، وبالاضافة الى أغراضها الجنسية والعاطفية ، ومنها ماكان الغرض منه اتقاء الحسد و « النفاثات فى العقد » وشرور العين ، و « النفس » الشريرة .

وهذه المعتقدات فى مجملها ، أمكن التعرف على منابتها الاولى منذ السومريين اللاساميين — الالف الرابعة ق.م. ، منها الرقى والطلاسم والاحجبة ، والعين الحاسدة ، أو القاتلة ، والنفس أى النفس الخالق الذى وهب به الاله الانسان ، حين نفخ فى حلقه فخرج من دبره وهو — نفسه — النفس القاتل المميت ، فيقال عن المصاب والمريض والمعلول ، انه «منفوس» ، كما قد يقولون «عائن» و «عيون» مثل عين الآلهة الاناث عند السومريين والبابليين «حين سلطت عليه نظرة الموت» التى أردت بها ابنها قتيلا ، وعين الام سارة ، الحاسدة التى كادت أن نقتل بهااسماعيل حين سلطتهاعليه فأردته قتيلا ، حتى ان أمه هاجر ، وارته تحت الرمل ، وصلت لأصنامها .

فالنفس الخالق ، هو نفسه النفس المميت .

وتنسب احدى أساطير القحطانيين ، وما أكثرها وأخصبها ، لكاهنة عريقة ، تدعى طريفة انها هى

التى وهبت الكاهن المتنبىء الخـــرافى الذى لقبوه بسطيح ، ورووا عنه انه عاش ثلاثين قرنا ،النفس الخالق .

وهىأسطورة قحطانية عريقة ، تستوجبالتأنى، تنسب احداثها لهجرات حميرية مصيرية بالنسبة لمجرى وتاريخ أحداث الشرق الأدنى ، ويؤرخ لها بما أعقب خراب سد مأرب

فعندما وافت المنية الملكالكاهن عمران بنعامر، دعا أخاه عمرو بن مزيقيا وأنبأه بخـراب البـلاد ، وبأهمية الزواج بالكاهنة طريفة ومات وعمر . سمى مزيقيا لانهكانت تنسج له فى كل سنة ٣٦٠ حلة من الذهب الاحمر ، وكان يأذن للنـــاس فى الدخول ، فاذا أرادوا الخروج خلعت حلته ومزقت، ولذلك سمى مزيقيا ، ويقال انه أخــذ سنته أو شعيرته هذه من ذى القرنين « يوم هتـك عرشـه ومزق حلته» . هذا ويبدو انها كانت بمثابة عيد أو شعيرة ، تتصل بالآلهة الزراعية الممزقة .

وترد بكثرة شديدة فى ذلك التاريخ الاسطورى للملوك اليمنيين ، مرة فى كيفية تمزيق الملك لثيابه على مرأى من قومه ومرة فى طقوس هتك العرا لشعب أو الملك ـــ أو التبع ـــ لعرشه ، بطريقة موسمية محدودة .

والملفت ان هذه التقليدة ، ماتزال سارية فى الحواديت والبالاد الشفاهية المصرية والعربية .

وتزوج عمـــر بن مزيقيا الكاهنة طريفـــه « وكان عمرو أعظـــم ملك بمأرب وكان له تحت السد من الجنات مالا يحاط به ، فكانت المرأة تمشى وعلى رأسها ـ مقطف ـ فلا تصـــل الى بيت جارتها ، الا وهى تملؤه من كل فاكهة ، من غير أن تمس منها شيئا حتى انهم دعوا على أنفسهم «ربنا باعد بين أسفارنا» الى أن أرسل الله عليهم السيل، فخرب السد ، وهو ماهتف به الهاتف أو ـ الآتى ـ وأخبر به طريفة فى المنام ، حتى زارها وقال لها : «ماتحبين ياطريفة ، علم تطيب به نفسك أو مولود تقر به عينك ؟ ، فقالت : بل علم تطيب به نفسى، فمر بيده على صدرها ، ومسح بظاهر كفـــه على بطنها فعقمت فكانت لاتلد ، واتسـعت فى العلم وأعطيت منه حظا عظيما»

وكان زوجها عمر بن مزيقيا ، يكنى بـــ « ماء المـــزن » أو مأرب ، أو « ماه رب » وهى كلمـــة أشورية بمعنى البلد والسهل والوادى ، كما أن «ماه» بالفارسية تعنى القمر .

وكان ابن عمرو بن مزيقيا ، يدعى ثعلبة العنقاء وهو « جد الانصار من الاوس والخزرج » .

وأمرت هذه الكاهنة ، قومها من العرب الغساسنه ، بالنزول الى الشام ، فتملكوا عكاء ، بعد أن هادنوا ملكها «سملقه بن حباب العكى» ونزلوا غربى عكاء .

ورفض ثعلبة العنقاء قتالهم ، متمثلا قول سلفه يعرب بن قحطان «ويل للمنزول عليه من النازل»

الى أن تروى هذه الخرافة ، عن تدخل «جـذع بن سنان وهو من الجن» فأوقع بين الغساسة وأبناء أعمامهم أهل عكا ؛ الى أن قتلهم الغساسنة ونفوهم من الشام ، ثم أشارت عليهم الكاهنة ، بالمسير الى همدان ، فتملكوها وهكذا سارت بهم الى نجران ، تستحثهم على القتال وتخطب في المحاربين ، وترسم الخطط ، وكانت تسكنهم قبيلة قبيلـــة ، فملكت قبائل الأزد عمان ، وملكت الأوس والخزرج «يثرب ذات النخل» أو المدينة ، وأنزلت همـدان «نحـو العراق بابل » وأنزلت علبة أوجفنه بن عامر بن غسان ، دمشق ، وأنزلت قبائل السراة بن غسان تهامه .

وكانت فى كل مرة تقول هذه الكاهنة كلامـــا مسجوعا ، كأن تقـول «خـذوا البعـير الشدقم ، فأنجزوه وخضبوه بالدم ، حتى تأتوا أرض جرهم» ، ثم حاربوا قبائل جرهم وبنو اسماعيل ، «فهزموهم حتى أدخلوهم مكة واستغاثوا بالحرم » .

وحست محه اخر مطاف تلك الهجرة القحطانيه
التى تزعمتهم هذهالآلهة الكاهنة الامالمدعوةطريفة
مثلما تزعمت سارة الآلهـة الام لقبيلة ابراهيـم ،
القبائل العبرية الرعـوية ، وضرتها هاجـر قبيلة
الهاجريين والاســماعيليين . وعبرتا . الامازون
الليبيات القبائل الليبية الخ .
وقبل موتها تنبأت لخليفتها بعد ذلك بقرون ـــ
الكاهن الجاهلى الخرافى « شق الذى يعلم ماحل
وما دق » والذى تنبأت طريفة بمجيئه قبل أن يولد
مقسمة بـ « الاسم والربا ، والعلم والابا ، والنور
والضيا ، انه يولد فى ـــ قبائل ـــ تميم ابن عم ،
ليس له مفصل ولا عظم ، يخرجممسوخا تم تموت
أمه لسبع ليال ، وينبىء ـــ أى شق ـــ بالزيادة
والنقصان الى فراغ الحق والزمـــان ، وأقسم
بالنور والفلق ماله رأس ولا عنق .
وبعد أن ماتت أمه لسبع ليال ، أتوا به طريفه
«ففتحت فمه ، فنفثت فيه وقالت : لاتســقوه لبن
امرأة الىبلوغه ، ثم قالت : أنتخليفتى منبعدى»
وينسب لطريفههذه ،انها أولمن سمتالعروبة،
قبل موتها :

ان ابنة الخير لها أعجوبة
وميتة تقضى لها مكتــوبه
تودى بها فى ليلة العروبة

وماتت طريفة فى « ليلة الجمعة فى عقبة الجحفة ، فقبرها هناك مشهور » .

وروى العرب الجاهليون الخرافات تلو الخرافات حول ذلك الكائن الذى تنبأت به طريفه فقيل (١) «كان الشق بن انمار بن نزار هذا شق انسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، وكذلك كانوا يعتقدون — فيما يماثله — وهو سطيح بأنه ابن مازن بن غسان ، وكان يدرج كما يدرج الثوب، ولا عظم فيه الا الجمجمة» ، وقالوا بأنهما كانا شخصيتين بلا رأس ولا عنق ، وكانا من أشهر الكهنة الجاهليين ، وان كسرى استدعاهما ليفسرا له رؤياه ، كما أنهم تصوروا شقا نصف آدمى ، ونسبوا اليه انه اول من تنبأ بوقوع غزو الحبشة لليمن ، وظهور الملك سيف بن يزن الحميرى .

ويربط البعض بين شخصيتى شق وسطيح ، بحسب ماأورده الرواة ، وبين وجود القردة والنسانيس باليمن — القديمة — بكثرة شديدة منها ماذكره الاصطخرى ، «وباليمن قرود كثيرة ، بلغنى انها تكثر حتى لاتطاق الا بجمع عظيم ، واذا

---

(١) الاساطير الاسلامية ص ٧٠ ، بلوغ الارب ٣/٣٨١ وما بعدها .

اجتمعت كان لها كبير تتبعه ، مثل اليعسوب للنحل وبها دابة تسمى العدار ، بلغنى انها تطلب الانسان فتقع عليه ، فان أصابت منه ذلك ، تدور جوف الانسان فانشق ، ويحكى عن الغيلان بهامن الاعجوبة مالا أستجيز حكايته » (١) .

وهذا مادعا د . محمد عبد المعيد خان الى الربط بين تصورهم لشكل شق وسطيح ، وبين القردة ، وبقية أفكارهم عن السعلاه أو السلعوة ، المتواترة حتى الآن فى المعتقد الخرافى المصرى .

ويبدو أن ثمة علاقة ، بين القردة وبين معتقد العرب الجاهليين عن الدهر أو القدر ، الذى وحدوه بالخالق والقادر والمانى الذى هو فى آخر المطاف الله . فقالوا أنه « فى آخر الزمان ، تأتى المرأة فتجد زوجها قد مسخ قردا ، لانه لايؤمن بالقدر » كما يقال بأن الجاهليين ، كانوا يسجدون للقرد .

ورووا الكثير من الخرافات ، حول أناس خلطوا اللبن بالماء ، فمسخوا قردة ، ومنها حكاية عن رجل حمل معه خمرا فى سفينة ليبيعه ومعه قرد ، وكان يغش الخمر بالماء مناصفة ، فسرق القرد صرة نقوده وصعد أعلى السفينة ، وراح يلقى بدينار فى البحر ، ودينار فى السفينة ، حتى قسمها نصفين .

---

(١) حياة الحيوان للدميرى ج ٢ ص ١٨٠ ، ص ١٨٣ .

ويبدو انهم اعتقدوا فى أن القردة والخنازير ماهم الا أناس بشريون ، فلقد تواترت خرافات كثيرة عن أن الجاهليين كانوا يرجمون القردة الزناة وروى عن الازدى قال « رأيت فى الجاهلية قردة زنت اجتمع عليها قردة فرجموها ، ورجمتها معهم »

وقالوا « ان الله لم يهلك قوما أو يعذب قوما ، فيجعل لهم نسلا ، وأن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك » وربطوا فى خرافاتهم المتعددة بين سكنى الجن والشياطين والسعالى ، لديار وخرائب القبائل العربية المندثرة ، عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق وغيرهم ، ومسخ هذه الاقوام الى قردة ، وفى خرافة تروى بعض الاقوام الاسرائيلية بهذا المعنى عن « القرية التى كانت حاضرة البحر » وهى قرية سماها ابن عباس بـ « أيلة » كانت تطل على البحر ويسكنها أناس من اليهود ، حرم الله عليهم صيد الحيتان يوم السبت ، فكانت الحيتان تأتيهم فى يوم سبتهم بيضا سمانا ، وفى غير يوم السبت لاتأتيهم الا بمشقة ، وحدث أن اصطاد أحدهم حوتا يوم السبت ، وشواه فوجد جيرانهم رائحة الشواء تملأ القرية ، واحل نصف القرية أكل لحم الحوت ، ورفض نصفها الآخر ، وأقسموا « والله مانساكنكم فى مكان أنتم فيه » وخرجوا من السور ، وصرخ : قردة والله وأنها أذناب تتعاوى ، ثم نزل ففتح الباب ،

وتدافعت الناس عليهم فعرفت القردة انسابها من الانس ، ولم تعرف الانس انسابها من القـردة ، فكان يأتى القرد الى نسيبه وقريبه ويختلى به ، فيسأله الانسى : انت فلان ، فيشير برأسه أى نعم، ويبكى» .

وفى قول آخر « فقدت ــ أو مسخت ــ أمة من بنى اسرائيل ، لاأدرى مافعلت، ولاأراها الا الفأر ، ألا ترونها ، اذا وضع لها ألبـان الابل لم تشربها واذا وضع لها ألبان غيرها شربتها»

ولم تتوقف حدود مسخ الامم والاقوام ــ المفتقدة ــ عند التحول الى القردة أو الجان أو الخنازير ، (١) اذ يقال بأن أحد الخلفاء رفض أن يأكل ضـبا ، والضب محلل أكله ــ وقال : « لا أدرى لعله من القرون التى مسخت » .

ولعل موجز هذا الفصل ، أن أفـكار القدرية والدهرية ، التى كانت تغرق ماضى بلداننا العربية منذ منبت الانسان المستهدف للعقـل على أرض هذا الجزء من العالم ، هى بذاتها مالاتزال تحكم مخيلة شعوبنا ، وتكبل ارادتنا . وبالتالى تشل طاقاتنا الخلاقة . أليس كذلك ؟

---

(١) الدميرى ج ٢ ص ١٨٢ .

الفصـــــل الســـابع

.خرافات الجن والشـــــياطين والعفاريت والريـــــاح

وقد ترجع أغلب معتقداتنا وتصـوراتنا التى ماتزال تتواتر فى مجتمعاتنا المعاصرة ، عن الجـن ومواطنهم ومصاهرتهم للانس وقبائلهم ، وكذلك الغيلان والسعالى ـ أو السلعوة ـ والعفاريت والرياح والنداهات والنفرات وسـكان ماتحت الارض .. الخ .

ترجع بكاملها منحـدرة من المتعربة البائدين ـ الالف الرابعة قبل الميلاد ـ وبشـكل أخص سكان الجنوب ـ اليمن ـ القحطانيين ، نظـرا لتيسر اتصـالاتهم المبكـرة بالفـرس المجوس فى ايران والتى يرجعهـا البعض الى ماقبل الالف الثالثة ق . م . حين اخضـع الملوك القحطانيون الفرس ومنهم ملوكها مثل الضحاك بن مرداس ، وذو الاذعار .

فلقد لعب موقع اليمن وقربها من البحر الاحمر جغرافيا على خط الاتصال بالهند وفارس الاريون، دوره فى جلب هذه الافكار والمعتقدات الخرافية، عن الجان ، ثم تسريبها فيما بعد الى بقية شعوب العالم العربى ، ومنه عبرت الى أوربا .

ويدافع « نولدكه » أحر الدفاع عن أن معرفة العرب بالجن ، جاءتهم من جيرانهم الشماليين ، وانها دخلت فلسطين من الايرانيين ، وليس هذا برأ ىجديد ، فقد اعتبر عالما الفولكلور الالمانيان الاخوان جريم :

« ان (١) حكاية الجان على رقعة العالم أجمع انتاج آرى كامل » ، بل ان فكرة تحول العشيق الى حيوان عقب المضاجعة أو الزواج الشائعة اليوم فى فولكلور كل العالم ماهى الا فكرة «عشتروتية» بمعنى انها كانت فى منبتها الام جزئية أسطورية سومرية لاسامية ، كما انها متصلة بفكرة الالهـة الانثى القمرية ، والتضحية بالملك الاب الذكر ، وهى أصبحت فيما بعد حكاية جان ، واسـعة الانتشار خاصة عند الساميين .

فيقال « ان بيذخ ابنة ابليس كان لها عرش على الماء وان المريد لها ، متى فعل معها ماتريد، سحرته » .

وبشكل موجز فلقد كان للعرب سكان الوبر ـ دور لانهاية له فى ترويج خرافات الجان هذه ـ على اعتبار أنها خرافات آرية هندوكية ـ حملوها مع فتوحاتهم الى مصر وشرق افريقيا والاندلس ، وأوروبا عامة وهى النظرية التى تبناها المستشرق تيودور بنفى .

وفى تقديرى ان ماكان ينسبه الساميون الاوائل عامة لالهتهم ، عادوا فاورثوه الجن . وبمعنى ادق فان اساطير انحدار الملك ـ البشرى ـ الابن من

---

(١) علم الفولكور ـ هجرتى كراب ـ ترجمة وشرح وتعليق رشدى صالح ص ٣٣ .

صلب اله ، والتى تتبدى بشكل أخص فى اساطير الملكات الساميات ـ التاريخيات ـ التى تجمـــع اساطيرهن على انحدارهن من رحم امهات سماويات « اتصلن برجال بشريين ذكور فجئن الى الوجود مثلما حدث مع الملكة البابلية ســـميراميس التى تنسب لها أساطيرها أن أمها معبـودة سماوية أرادت ان تستر زلتها ، فتركتها فى الخلاء . وأما جانب تطابقهـا مـع عشـترت فيرجـع الى قتلهـا عشاقها عقب الجماع ، وكذلك سميرام السورية ، وميرنا أو سميرنا ، ملكـــه الامازون الليبيـات ، التى ينسب لها المؤرخ ديودورس الصقلى ، أنها « عندما مرت بمصر ، صادقت حور ـ حورس ـ ابن ايزيس الذى كان ملكا متوجا بها » .

اما عن مراحل استبدال الامهات الســماويات بانثيات من الجن ، فيبدو واضحا فى نسب بلقيس ملكة سبأ ، وأمها الجنية المشهورة « رواحــة بنت مسكن » ، وهو اسم مايزال يتواتر على الشفاه فى خرافات الجن المصرية . ومنها جنية جبل ضــهر باليمن ، والجنية التى انحـدر من رحمهـــا الملك الحميرى الصعب «ذو القرنين » . والصعب بن ذى مراثد الحميرى .

بل ان العرب نسـبوا لســـابقيهم من القبائل

العربية البائدة ، انحدارهم من أمهات جنيات مثل قبائل جرهم ، التى قيل انها جاءت الى الوجود من نتاج مابين الملائكة وبنات آدم · وكذلك قبـــائل جديس وثمود والعماليق أو العمالقة فى الشام وفلسطين ، وهو تصور ليس ببعيد طبعا عــــن تصور العبريين ، من أن الملائكة هم أبناء اللــــه « بنى ايلوهم » ، أو عــن عبادة العــرب للجــن ، وتحريمهم لاماكن شاسعة بكاملها ، لايقربونها ، و « الحجر » اعتقادا منهم فى أن هذه الاماكن كانت موطن الاســلاف من الجن مثــل وادى « برهوت » و « يبرين » و « صيهد » ديارا لقبائل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعماليق ، وغيرهم من القبائل المندثرة .

ومن هنا جاءت فكرة اعتبار القبور والاماكن المهجورة والخرابات بعــــامة ، مواطن للجن والعفــــاريت .. وان تحية العربى القــــديم لساكنى المقابر من الجن والعفاريت والتى كانت اتقاء لشرورهم هى « عمواظلاما » وهى ماصبحت اليوم « مســيكم بالخير » ومرادفاتهــــا المختلفة ، ومنها اجابة الجنى أو الغــول عــــلى البطل الانسى « لولا سلامك غلب كلامك ، لكنت كلتك ورميت عضامك » وهكذا ··

وقد لايقبل المرء بسهولة ادعاءات المستشرقين وعلماء الارية مثل نولدكه وبنفي تصورهماللشرق الادنى القديم ، كمجرد معبر حضـــاري ثقافي ، أتخذه التراث الفولكلوري الآري ـ الهندو ايراني ـ الى اوروبا والعالم الجديد ، ذلك ان الكشـــوف السومرية العراقية الاكثر قدما من الارية ـ بداية الالف الرابعة ق . م . جاءت فأجلت الكثـــير من الغموض ، من ذلك مثلا ماجاء عـــن العفريتـــة الشيطانة « ليليث » التي تسكن الخرائب والاماكن المهجورة وهي الفكرة المتواترة اليوم ، عن سكنى العفاريت الخرائب ، وهو ماكشفه وأوضحه نص القصيد السومري المعنون « جلجاميش وانكيدو والعالم الآخـر » ، أو « جلجـــاميش وشـــجرة الصفصافة » .

وتبدأ هذه القصيدة هكذا « في قديم الزمان ، كانت شجرة الصفصافة مغروسة عـلى شـــاطىء الفرات ، وحدث ان هبت عليها العواصف الجنوبية وفاضت عليها مياه الفرات فاخذتها الالهة أنانا ، الى مدينتها « أرك » أو ـ الوركاء ـ وغرستهـــا في بستانها المقدس حتى اذا كبرت الشـــجرة صنعت من خشبها سريرا وكرســـيا ، وعنـدما حاولت أنانا قطعها لتصنع من خشـــبها سريرا وكرسيا أعجزتها حية شيطانة « ليليث » اتخذت

منها مسكنها ، الى أن جاء البطل الالهى جلجامش فقطع الشجرة ، وذبح الحية ، وفرت الشيطانة ليليث الى الاماكن الخربة المهجورة .

وبالقطع هذه أول فكرة تاريخية أو حفرية ، عن سكنى العفاريت الخرائب .

ومع انتقال تراث السومريين الى خلفائهم وورثتهم البابليين الذين عرفوا بالاكاديين نسبة الى اكدو عاصمتهم ، انتقلت فكرة الشيطانة ليليت اليهم ، وليليت كلمة بابلية اشورية ٠٠ ومعناها أنثى العفريت أو الريح ، كما أنها ذكرت مرة اخرى فى احدى القصائد الجلجاميشية البابلية ــ حوالى ٢٠٠٠ ق٠م ــ وتحول هذا اللفظ بعد ذلك من ليليث الى ليل ٠٠ وهى ما اصبحت تظهر ليلا وعرفت بالجنية ليل ،تسكن الاماكن الخربة وموارد المياه وتظهر كخارقة ليلية يغطى الشعر كل جسدها العارى فى الفولكلور السامى المعاش اليوم بعامة .

ويبدو أن الليليث أو ليلى أو ليل السومرية هذه ــ ٤ آلاف عام ق٠م ــ هى نفسها التى أصبحت تصادفنا فى الشعر والاغانى الشعبية ــ ياليل ياعين ــ كما ان الليليث أو ليلى ، توجد بكثرة هائلة فىالاغانى الدينية الشعبية ، المعروفة بأغانى التخمير ، والزار .

ويبدو ان العبريين كانوا قد اخذوها عن الكنعانيين الذين سبقوهم فى استيطان فلسطين فليليت فى اللغة الكنعانية أو الفينيقية معناها اناثا أو اناث ــ ومفردها انثى ــ وهى ماتتوحد مع عشترت خاصة فى طقوس العرس المختلط .

ولقد اعتقد الملك سليمان فى ان بلقيس ملكة سبأ ، ما هى الا ليليث أى عفريته ، نظرا لان جسدها كان مغطى بالشعر » (١) فلما نظر سليمان الى شعر ساقيها ، ورأى جسمها احسن جسم ، صرف وجهه عن ساقيها للشعر » وكان ان وضع لها سليمان بعد ذلك بمعونة جنوده واعوانه من الجن ــ الخلطة ــ التى تزيل الشعر ، وهى ماعرفه النساء بعد ذلك حين ينزعن ، أو ينتفن شعرهن بالحلوى .

أما عن فكرة توحد حواء بالحية التى تتوحد بدورها بالشيطان ، فتتبدى بكثرة فى اغلب اساطير الخلق السامية ، وتذكر هذه الاساطير ان الحية اذ ذاك لم تكن على شكلها ، الان ، بمعنى ان مسخا قد حدث لها ، عقب توحدها بالشيطان ابليس ، حين وسوس لحواء ــ من فم الحية ــ الاكل من الشجرة الممنوعة أو

---

(١) التيجان ــ وهب بن منبه ١٦٢

المحرمة ، ويقال انها الحنطة(١) « ووعدهما أن اكلا منها ان يخلدا ولايموتا » .

ففى أغلب الاساطير والشفاهيات العربية خاصه ، يغوى الشيطان المرأة زوجة الاله أو البطل ، مثلما حدث مع زوجة نوح ، حين مكنته من تخريب الفلك ثلاث مرات ، وكذلك فقد تسلل الشيطان الى الفلك خلال الطوفان عن طريق زوجة نوح ، عقب ــ زواجه ــ منها .

ووردت هذه الفكرة ايضا فى الاسطورة الفلاشية عن تسلل الشيطان الى جوف الحوت الخالق ، مواصلا نشر كوارثه .

وتكشف النصوص المدونة والشفاهية لاسطورة الطوفان استعانة الشيطان بزوجة نوح ، للايقاع بنوح ، وتحطيم فلكه ، وفى أحد النصوص الايرلندية التىجمعها الاستاذ «جيمس ديللارجى» مدير عام الجمعية الايرلندية للفولكلور عام ١٩٥١ يقول هذا النص : « ان بناء فلك نوح استغرق ٨١ عاما ، اذ أن الشيطان كان يدمره مرة كل سبع سنوات ، مستعينا بالزوجة » .

وفى احد النصوص الشرقية التى جمعها أبيفانيس اليونانى « ان برها زوجة نوح أشعلت

---

(١) بداية القدماء ص ١١ .

الفلك نارا عندما دخلتها »

وفي عديد من النصوص يأخذ نوح مكان ادم ويتطابق معه ، ويروح ابليس يغـرى الزوجة ، ويدفعها الى ان تدفـع نوح بدورهـا للاكـل مـن الشجرة المحرمة ، بما يدفع الله لان يسلط عليهم الطوفان كعقاب .

وتتوالى جزئية أو فكرة غواية الشيطان للزوجة بشكل متوال فى اغلب الاسـاطير السـامية فالشيطان هو الذى وسوس لامرأة لوط ، حـين هجر لوط قومه وفر مهاجرا ومعه أهل بيتـه فأرسل العذاب على مدينة :« سـادوم وقراها الخمس » « عمره وادماء وصبويم وبالع » حين سمعت المرأة أصوات خراب المدينة فصرخت :(١) « واقواماه » « وكان ان تحولت الى عمود ملح » .

وفى أحد النصوص التى تتعرض لغواية الشيطان لرحمة ، امرأة ايوب ، يقـول النص انه كان لـ « أيوب بن رازح بن العيص بن اسحق بن ابراهيم الخليل ، زوجة اسمها رحمة ، وكان ايوب صاحب أموال عظيمة وكان له ملك البثنية جميعها مـن اعمال دمشق ، فابتلاه الله بان اذهب امواله حتى صار فقيرا ، وهو مع ذلك صـابر عـلى عبادته

---

(١) بداية القدماء ص ٢٠ .

وشكره ، ثم ابتلاه الله فى جسده ، حتى تجـذم ودود ، فبقى مرميا عـلى مزبلة لايطيق احـد ان يشم رائحته ، فكانت زوجته تخدمه وهى صابرة على حاله ، فتراءى لها ابليس واراها ماذهب لهم • وقال لها اسجدى لى لارد مالكم اليكم ، فاستأذنت ايوب ، فغضب وحلف ليضربها مائة ، ثم ان الله تعالى عافى ايوب ورزقه ورد الى امرأته شبابهـا وحسنها ، وولدت لايوب سـتة وعشرين ذكرا ، ولما عوفى ايوب ، امره الله بان يأخذ عرجونا من النخل فيه مائة شـمراخ ، فيضرب به زوجته ، ليبر فى يمينه » •

ومايمكن ملاحظته فى ذلك النص • هـو ان ابليس ، ارى الزوجة « رحمة » ماذهب لهم بمعنى انه هو الذى كان قد سلب عنهم أموالهم وعزهم •

واصاب أيوب بالداء ، وفى مقدوره رد ما اخذ، لو ان المرأة سجدت له •

فالعلاقة بين المرأة والشـيطان تتواتر بكثرة شديدة ، خاصة فى نصوص واساطير الخلق الاولى عند عديد من ملل ونحل الشعوب والقبائل السامية العربية •

ومايهمنا هنا هو هذه الفكرة السومرية ، وهى فكرة توحد الشيطانة ليليت بالحية • وليليت هى ماعرفت عند الساميين بحواء الاولى ، والتى عادت

بدورها فتوحدت بالحية ، خاصة عند القبائل العبرية ، ففي التوراة ان اصل الانسان من الحية، والحيه من الجن . وترددت هذه التضمينة فى عديد من أسفار الخلق والبدء عند أغلب ملل ونحل الشرق الأدنى .

فعندما قرر الله ان يهب ادم أنيسا ، طلب منه ان يسمى كل حيوان بهيم وطائر وكل مخلوق حى ، فكانت الحيوانات تمر به ـ ذكر وانثى فسماهم آدم واختبر نفسه مع كل انثى منهم . وعندما عجز ، صرخ باكيا : لكل مخلوق قرينة الاى . فكان ان خلق الله له الليليت أو حواء الاولى ، ويقال ان الله استعمل فى خلقها القاذورات والرواسب الطفيلية بدلا من مياه العمق ، أو الطين اللازب أو الصلصال الذى خلق منه آدم .

ويلاحظ طبعا أن هذا التراث ـ الابوى القبلى يحط من قدر المرأة حتى فى مادة خلقها .

وباتحاد ادم مع هذه الشيطانة ومع اخرى على شاكلتها تدعى « نعمة أو نعامة » ونعمة هى أخت قابيل القاتل وقرينته وينسب لها نشر مالا يعد ولا يحصى من الشياطين والجن التى هى آفة ووباء الجنس البشرى ، ومنها الجنون ، المشتق لفظيا من الجن .

وقد (١) نعثر عند الجاحظ على تفسير لتوضيح تلك العلاقة اللغوية الاشتقاقية بين الاسم نعمة أو الجنية نعمة التى تشارك الليليت فى خنق الاطفال الحديثى الولادة ، والاضرار بهم . وبين طائر النعامة ، فمن امثال العرب وقولهم « اشرد من نعامة » .. ذلك لتخلى النعامة عن بيضها وأولادها ـ عند رؤيتها الطعام .. ومن أمثالهم «أحمق من نعامة ـ وأجن من نعامة » و « مثل النعامة لاطير ولا جمل » و « من يركب نعامة فى الحلم نكح خصيا » .. ألخ . كما أن اسم «نعمة» كان من أسماء أو القاب الهة الجنس عشترت .

وتنسب الاساطير لهاتين الانثيين أو الجنيتين ليليث ونعمه ، انهما هما اللتان جاءتا الى كرسى عدالة الملك سليمان ، متنكرتين فى هيئة زانيات أورشليم .

فاذا ماكانت الحية قد توحدت صراحة بالشيطان حين تسلل ابليس الى الجنة داخل الحية ، والحية هى التى اغرت حواء بالاكل من شجرة المعرفة أو الشجرة المحرمة أو شجرة التين فكان ان

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ـ ١٨٧ .
الدميرى ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

استجاب ادم باغراء من حواء .

وعلى هذا فان الثلاثة : الحية والشيطان والمرأة ، ماهم الا وجها واحدا لنفس البطل .

وتتركز الاسطورة التي أوردها الطبرى (١) فى أن « ابليس عرض نفسه على دواب الارض فى ان تحمله لكى تدخله الجنة ، بعد ان منعه رب الجنة من دخولها ، فكل الدواب رفضت ذلك ، حتى كلم الحية فقال لها ان انت أدخلتنى الجنة ، احميك من ابن ادم ، وتصبحين فى ذمتى ، وكانت الحية دابة لها اربع قوائم كأنها البعير ، فجعلته بين نابين من انيابها . ثم دخلت به ، فكلم ابليس حواء فكانت الخطيئة الاولى ، وعقابها المعروف وهو الطرد من الفردوس ، وادماء حواء الشهرى المتمثل فى الحيض وذلك العداء الرباعى الابدى بين الرجل والمرأة والحية والشيطان . (اهبطوا بعضكم لبعض عدو » .

ويقال أن (٢) ابليس دعا الله قائلا : « يارب اخرجتنى من الجنة من أجل ادم ، زدنى ، قال الله: لا يولد له ولد الا ولد لك مثله . قال : زدنى ، قال : صدورهم مساكن لك ، وتجرى منهم مجرى

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ص ١٠٦ - ج ١ .

(٢) الكامل فى التاريخ لابن الاثير ج أ ص ١٨٢ .

السم • قال : زدنى ، قال : اجـلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الاموال والاولاد • »

وترى بعض أساطير الخلق ــ العبرية ــ ان اول صراع نشب بين آدم وحواء ، جــاء بسبب استياء حواء من وضع المضاجعة « لما حتم على الاضطجاع الى جانبك » وعندما حـــاول آدم ارغامها ، نطقت باسم الله الخفى أو التابو ، ــ وكانت علىمعرفة به ــ وانفلتت طائرة فى الهواء فأقامت الى جوار البحر الاحمر ، فى اقليم تتكاثر فيــه الشهوات الشيطانية وهناك أنجبت آلاف الابناء من الشياطين .

وعندما شكا ادم حواء أوليليت الى الله •• لقد هجرتنى زوجتى ، لحمى « وارسل الله الملائكـــة فى طلبها والبحث عنهـــا وعندما هددها الملائكة بالموت ، قالت لهم : كيف لى أن أموت وقد وكلنى الله برعاية الاطفال المولودين الذكور منهم حتى يومهم الثامن ، والاناث حتى العشرين » •

وبينما راحت الليليت واختها نعمـــة تخطف الاطفال المولودين وتخنقهم ، عاقبهما الله بقتـل مائة من أطفالها يوميا .

الا ان الجنيتين راحتا تخنقان الاطفال وتغويان الرجال النائمين ــ الفرادى ــ وتضاجعانهم ،

وبعد ذلك يقتلانهم بمص دمائهم ونهش اجسادهم ولعل فى هذا أول تصور عن (١) النداهات وترجع بذوره الاولى الى الألف الثانية ق٠م عند الكنعانيين الشوام ٠

ومن اساطير الخلق الاولى ، اكتملت المعتقدات التى ماتزال شائعة ، حول اضرار العفاريت والارواح الخفية بالاطفال الحديثي الولادة فكان من المتبع رسم دائرة سوداء على حائط حجرة العرس، يكتب داخلها « ادم وحواء ، اغربى ياليليت » ، أما عندما تتمكن الليليت من الاقتراب من الطفل الوليد ، وتشغف به حبا ، فلابد من ان يضحك الطفل فى نومه ، ولتجنب الخطر ، ينبه الطفل بوضع اصبعه بين شفتيه ، حينئذ تختفى العفريتة، وهو ماشاع كثيرا فى تماثيل وتمائم الاله الطفل فى كلا التراثين الهلينى والرومانى ، ووجد من آثاره ملايين التمائم ٠

كما انهم اعتقدوا فى ان الطهور هو الحماية الحقيقية للطفل من العفاريت ٠

وكان من المعتقد « ان العفاريت تسكن الصحراء

---

(١) برغم الفكرة أو المقولة العصرية التى عالج بها د ٠ يوسف ادريس قصته الرائعة « النداهة » ، الا انه كان مدركا لبعدها الخرافى الاسطورى ٠

الادومية بسوريا مخلفة الرعب والبجع والبوم والغربان وأبناء آوى والحيات والحدءات ، والنعام الذى اشتق اسمه من اسم نعمة » .

وكانت ملل ونحل الكلدانيين الحرانيين فيما بين النهرين ، وكذلك المانوية والديصانية نسبة الى ابن مانى وبن ديصان ــ وما تفرع من هذه الملل من فرق مثل المهرية والمقلاصية ، وغيرهما يرسمون دوائر ثلاث فوق رأس الطفل حديث المولد ، يكتبون على الاولى اسم ملك الجان ، وعلى الثانية اسم الانسان القديم ، وعلى الثالثة اسم روح الحياة . (١)

وقد ارتبطت هذه الشعائر عند تلك الملل الكثيرة المتلاطمة ، باساطيرهم وافكارهم الاولى عن الخلق ، والصراع بين آدم ، وبين الشيطان أو الصنديد ، الذى « علم حواء » رطانة السحر ، لتسحر آدم « وتسلبه اطفاله ، فكان آدم يتضرع الى الله » ماذنب المولود .

ومعتقد الخوف على حياة الاطفال حديثى الولادة، وأمهاتهم ــ النفساوات ــ منتشر بكثرة فى فولكلور

---

(١) مئات الملل والنحل ، أوردها بدقة العالم الموسوعى الكبير ، ابن النديم ، فى موسوعته الرائدة ــ الفهرست ص ٣٤٠ .

شـــعوب العالم القـــديم وكان العبريون اليهود والرومان والجرمان ، يعتقدون فى مقـــدره « روح الحديد » على طرد هذه الارواح الشريرة ، فيذكـــر المؤرخ « بيلينى » أن الرومان اعتقدوا فى قـــدرة الحديد على طرد الشـــياطين ، كما ذكر الاخـــوان جريم « ان الجرمان ، كانوا مؤمنين بالدم والحديد فى طرد الارواح الشريرة . »

وفى القـــرن الـــرابع عشر الميلادى ، وحـــد « هيرونيموس » بين الليليت السامية واللاميـــا اليونانية ، واللاميا أميرة ليبية هجرها الاله زيوس بعد ان سرقت أطفال زوجته هيرا فكان ان واصلت انتقامانها بسرقة زوجات الآخرين من أزواجهم ، واللامياتغوى الرجال ـ الفرادى ـ النائمين فتمتص دماءهم وتلتهم لحمهم ـــ وهى ماأصبحت فى تراثنا الفولكلورى النداهة والسلعوة ـــ وفى الرســـوم الحائطية الهلينية صورت اللاميـــا وهى تفترس أحد المسافرين وهو مضطجع على ظهره .. مثلها فى هذا مثل سابقتها الرسوم الحائطية الكنعانية ، التى ترجع الى ماقبل القرن الرابع عشر ق.م. والتى تصور الالهة العارية أناثا ـــ أى الانثى أو الليليت ـ طائرة فى الهواء ، لامسة مقبلة عشيقها النائم الاله « مـــوت » وفى صـــورة أخـــرى يبدو موت ـــ أو آدم الكنعانى ـ يحفـــر تحت الضـــلع

الخامس ، بما يشير الى خلق حواء من ضـــــلع الرجل · (١)

فخلق حواء من ضلع الرجل ، أسطورة مستقرة منتشرة بكثرة على طول الشرق الاوسط ، تؤكـد سيادة الرجل الذكر ، منكرة قدســية حـواء ، منقصة من مساواتها بالرجل ، موحدة بين المـرأة والحية والشيطان والجنية ·

●●●

وكان الكلدانيون فلاسفة وكهنة حران يقولون بأن للجن الها ، يضحـون له بنحر الخرفان ، ويطبخون ماء يستحمون به سرا لرئيس الجـن ، وهو الاله الاعظم ، كما كان من عاداتهم التضحية بصبى طفل حين يولد · يذبح الصبى ، ثم يلصق حتى يهترىء ويؤخذ لحمه فيعجن بدقيق السميذ وزعفران وسنبل وقرنفل وزيت ، ويعمل منــه أقراص صغار مثل التين ، يخبز فى تنور جديد ، ويكون لأهل السر للشمال ، ولا تأكل منه امرأة ولا ابن امـه ولا مجنون ·

وكان من (١) منفراتهم ، اى اتيانهم الامــور المنفرة للجن ـ وتعرف بالمنفرات عند السـاميين

---

1 — Syrian stone-Lore. p. 83.

2 — Religion of the Semites-Cook.

بعامه ـ انهم يعلقون الجنـــاح الايسر للفراخ على صدور الاطفال والحوامل ، لاتقاء الليليت والجن .

كما كان من بين هذه المنفرات ـ التى ماتزال تتواتر حولنا ـ عند بقايا هذه الاقوام منحدرة من العرب الجاهليين ، استعمال (١) عظـــام الموتى أو خرق الحيض ، أو اعتقادهم فى ســـن الثعالب ، وحلق الرأس بالموسى ، وتغيير الاسماء ، فيذكـر عن اعرابى انه قال : « لما ولدت قيل لابى نفرعنه ، فسمانى قنفذا وكنانى أبا العداء » (٢) .

وعن ابن عباس قال « كانت حواء تلـــد لادم فتعبدهم ، أى تسميهم عبد الله وعبد الرحمن ، ونحو ذلك ، فيصيبهم الموت ، فأتاها ابليس فقال لها : لوسميتما لغير هذه الاسماء ، لعاش ولدكما ، فولدت حواء ولدا فسمته عبد الحرث ، وهو اسم ابليس » .

ويورد ابن النديم ، ان مصر وبابل أكثرت مـن هذه المنفرات قائلا : « فاما السحرة فزعمت انهـا تستعبد الشـياطين والجـن بالســحر والقرابين .

---

(١) الفهرست ـ ص ٣٢٣ . بلوغ الارب (٢/٣٢٥) . تاج العروس (٣/٥٧٩) .

(٢) بلوغ الارب ـ ٢/٣١٩ ومابعدها ـ اللسان ٨ ـ ٨٥ . ـ تاج العروس ـ ٣ ـ ٥٧٩ .

وارتكاب المعاصى والمحظورات واستمالتها بترك الصلاوة والصوم ، واباحات الدماء ونكاح ذوات المحرم وغير ذلك من الافعال الشريرة وهذا الشأن شائع ببلاد مصر وبابل » ٠

واضاف : « وقال لى من رأى السحرة بارض مصر ، وبها بقايا ساحرين وساحرات ، وزعم الجميع من المعزمين والسحرة ان لهم خواتيم وعزائم ورقى وصنادل وغير ذلك » ٠

وكانت خرافات الغيلان منتشرة بكثرة شديدة فى الجزيرة العربية وينسب لكائن خرافى يسمى « تأبط شرا » انه قتل غولة بضربة واحدة من سيفه فقتلها ، وان الغولة عندما ضربها أول ضربة ، طلبت منه ان يضربها ثانية ، لكنه رفض ٠ وهى تلك التضمينة الاسطورية المعروفة فى خرافات الجان ، والتى مؤداها ان « ضربة الرجال ماتتناش » ٠

وممن تزوج بالجن من العرب عمر بن يربوع بن حنظله التميمى ، وجذع بن سنان ، وعمرو ذى الاذعار بن ابرهة ذى المنار وأمه الجنية العيوف ابنة الرائع ٠

بل ان قبائل باسرها انتسبت الى الجن مثل(١) بنى

---

(١) الاصنام — ص ٣٤ ٠

مالك ، وبنى شيصبان ، وبنى يربوع ، الذين تسموا ببنى السعلاة ـ أى السعلوة ـ كما ترجع اساطير الخلق والبدء الحبشية نسبها بكامله الى الحية والحية تتوحد مع الجن .

كما ان قبائل بكاملها عبدت الجن ، مثل رهط طلحة الطالحات من خزاعة ولقد اعتقدوا فى ان للجن عشائر وقبائل ، تربط بينها صلة الرحم كما هو حادث عند بنى الانس القدماء .

ولقد كتبت مؤلفات بكاملها فى هذا المعنى ، نسبة لابن هلال ، وابن الامام وأبو خالد الخرسانى وابن ابى رصاصة ، ولوهق بن عرفج « وله مؤلفات عن طبائع الجن ومواليدهم « وآريوس الرومى » وكان من علماء الروم بالعزائم ، وله من الكتب كتاب يذكر فيه أولاد ابليس وتفرقهم فى البلاد ، وما يختص به كل جنس منهم فى العلل والارواح ، كما ان منهم ابن وحشية الكلدانى وكتبه عن السحر والجن على مذاهب الانباط والكلدانيين والحرانيين وغيرهم .

ويرى ابن الكلبى ان ابليس (١) انجب خمسة، منهم ثلاثة قبائل أو اسباط ، تنزع الى الشر ، « الثبر » و « زلفيون » و « دامس » فالثبر هو

---

(١) الملل والنحل ـ للشهرستانى .

صاحب المصائب والكوارث وزلفيون ، هو المنوط بالاندساس بين الناس والايقاع بهم ، اما دامس أو الاعور ، فهو صاحب الزنا وهتك الاعراض والاباحات ، كما ان منهم «مسوط» وسمى صاحب الراية . ينصبها وسط الاسواق ، ويروح ينشر بين الناس الخصومات والجدال والمنازعات .

كذلك فلا نهاية لمن عشق الجن من الانس ، وخاواها فى العلن والخفاء .

كما ان حروبا طويلة دامية ، وقعت بين قبائل الجن وقبائل الانس من العرب ، منها حروب بنى سهم ، الذين كانوا قد قتلوا ابن امرأة من الجن ، عقب حجه وطوافه بالبيت ، فوقعت الوقيعة بين قبيلة الجنى المتوفى وبنى سهم ، وقتل الجن من بنى سهم خلقا كثيرين ، وكان ان نهضت بنى سهم وحلفاؤها ومواليها وعبيدها ، وركبوا رءوس الجبال وشعابها ، فما تركوا حية ولا عقربا ولاعضاضة ولاخنفسا ، ولا هامة تدب على الارض، الا قتلوها ، حتى ضجت الجن ، فصاح صائحهم ، يطلب وساطةقريش بينهموبين بنىسهم فتوسطت قريش وانتهى النزاع بين بنى سهم (١) والجن .

وكان كلما اوقعت الجن ببشرى بعد ذلك ،

---

(١) ـ الازرقى ـ ٢ ـ ١١ وما بعدها ، المحبر ص ٣٩٥ .

خاطبها قائلا : « يامعشر الجن ، أنا رجل من بنى سهل ، وبيننا وبينكم عهد وميثاق» • فتعرفه الجن وتهابه •

وكانت نحل وشيع الحابطين ، اصحاب أحمد بن حابط بنواحى البصرة ، وأحمد بن نانوس ، وايوب بن نانوس ــ الذى اباح النكاح ــ كانت هذه الفرق والشيع تقول بان « الله نبأ انبياءه من كل نوع من انواع الحيوان ، حتى البق والبراغيث والقمل ، مستندين الى قول الله ،وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم امثالكم » •

والربط بين الجن والحيوانات والهوام والاشجار، يشير مباشرة الى انحدارها من الطوطمية ، وهو ماكنته القبائل السامية خاصة أصحاب الوبر ، من عرب وعبريين فكانوا يتسمون باسم الحيوان ، ويحرمون التلفظ باسمه ، ومن هنا جاءت المرادفات المتعددة للحيوان الواحد (١) « وذكر المستشرق هيردر ان لدى العرب خمسين كلمة للدلالة على الاسد ، ومائتين للثعبان ، وثمان للعسل ، وأكثر من ألف للسيف » •

---

(١) الاشتراكية والفن ص ٤٢ ــ كما يذكر الدميرى : أن للاسد مائة وثلاثين اسما ، منها : أسامة ، والغضنفر ، والليث ، والورد ، وابو العباس ، وأبو الحارث .

وكانت القبيله واسلافها والارض التى تعيش عليها ، ومايتحكم فيها منعوامل مناخية واجتماعية وحدة تنحدر من الطوطم السلف الاب ، سواءأكان حيه أو نعامة ، أو حمامة أو كلبا أو جملا أو جرادا أو ديدانا أو بيضة أو حوتا . وعلى هذا اختلفت كل قبيلة أساطيرها ، ووحدت بالتالى بين الطوطم والخالق ، مثل كوزلولوجى أو اسطورة الخلق عند الرشيين (١) ، القائلينبفكرة الرحم الخالق (ويمكن ملاحظة العلاقة اللغوية الاشتقاقية بين ذلك الرحم الخالق ، وبين الرحمة والرحمان والرحيم والراحم والمرحوم .. الخ) .

وهم الذين زعموا « ان فى جوف الماء الريح وفى الريح الرحم ، وفى الرحم المشيمة . وفى المشيمة بيضة ، وفى البيضة الماء الحى ، وفى الماء الحى ابن الاحياء العظيمة ، الذى ارتفع الى العلو فخلق البريات والاشياء والسموات والارض الآلهة » .

وكذلك أساطير خلق المغتسلة سكان البطائح، والكشطيين ، والمنسطوريينوالصامية ، والغولية ، والادمية أو الادوميين الذين منهم اشتق اسم ادم

---

(١) الفهرست — ص ٤٥٠ .

(٢) الشهرستانى . ص ٢١١ .

أبو البشر ·

وكانت اسطورة الخلق القريشية ــ فيما قبل الاسلام ــ وقريش كان طموطمها الحوت ، تقول «ان الله خلق الارض على حوت ، والحوت في المــاء ، والماء على ظهر صفاة ، والصفاة عــلى ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة في الريح » · ويقال انها هي الصخرة التي ذكرهــا الحكيم لقمــان ، ليست في السماء ولا في الارض ، فتحرك الحوت، فاضـــطربت ، وتزلزلت الارض ، فأرسى عليهــا الجبــال ·

وفي احدى خرافات (١) ذي القرنين التي يوردها وهب ابن منبه « ان ذا القرنين اتى على جبل قاف قال فاخبرني ماهذه الجبال التي حــولك ، فقال جبل قاف ، هي عروقي فاذا اراد اللــه ان يزلزل ارضا امرني فحركت عرقا من عــروقي فتزلزلت الارض المتصلة به » ·

وفي خرافة قريشية متأخرة ، كان لها السيادة فيما بعد « ان ابليس تغلغل الى الحوت الذي عــلى ظهره الارض ، فوسوس اليه ، وقال له : اتدرى ماعلى ظهرك يالوتيا من الامم والدواب والشـــجر والجبال وغيرها ، انك لو نفضتها أو القيتها عـــن

---

(١) التيجان ــ ٣١٢ ·

ظهرك ، لكان ذلك اريح لك » .

ويرى رفائيل بتـاى ان العبريين اسـتعاروا افكارهم عن الحيتان والحيوانات البهيمية ذات الجنت الهائلة ، من العرب الاوائل ـ أو البائدة ـ وهـو ماكان يطلق عليـه العرب تعفـون ـ أو التعفن ـ ومنها بعل تعفون ، وهو مايشـير الى البهيمية ، وصراعات الحيوانات الخارقة الوحشية ، مثل الثيران والبقر الوحشي والحيتان .

ووردت هذه الخوارق البهيمية فى الميثولوجى الفرعونى ، فذكر الرحالة المؤرخون « هـردوت وديودورو الصقلى وبلينى » الحيتان والتماسـيح وفرس النهر ، فكانت تلك الحيوانات الوحشية ، مقدسة فى مصر للالهست عدو اوزيريس ومغتصب عرشـه (١) .

كما وردت هذه الخوارق البهيمية فى الميثولوجى البابلى ومنهـا الحوت متعـدد الرأس والاله ذو الرءوس السبعة بمثابة الصولجان السومرى ، منذ الالف الخامسة قبل الميلاد .

وبحسب ماذكره هرودوت وديودورو الصقلى ، فقد « أكـل فقـراء الشرق الاوسـط عامة ، لحم الحيتان وفرس النهر والبهائم الوحشية ، خـلال

---

1 — Semitic Mythology. N.Y. (1)

اعيادهم الموسمية ، احتفالا بأكل اللحم » .
وطبعا كان الحيوان الطوطم . يدافع عن القبيلة ويحميها ، مثل هدهد سليمان وبلقيس ، وحادث تلصصهما أو تجسسهما علـى احدهما الآخر ، وايضا ضباع قبائل الضبعيين والكلبيين وكذلك بنو هلال أو الهلالية ـ اصحاب سيرة بني هلال ـ وبنو عبد شمس ونسر وغيرهم وهو ما اصـبحت شعائرهم ـ الطوطمية ـ مثل الهلال والنسر رمزا موحدا للعالم الاسلامى فيما بعد ، مثلما اصبحت نجمة داود المسدسة شـعارا موحـدا للقبـائل العبرية .
يقول المسعودى «وقد زعموا ان الحيوان الناطق ثلاثة اجناس ، ناس وبنتاس ونسـناس ، وقالوا ان وجوههم على نصف وجوه الناس » .
وتركز الميثولوجيا السامية بشكل مجمل ـ على ان خطيئة ابليس الاولى ، تمثلت فى اسـتكباره للمادة التى خلق منها ، وهى النار ، على المـادة التى خلق منهـا آدم ، وهى الطـين أو التراب ، هذه أول شبهة أو خطيئة وقعت فى الخليقة .
وفى احـدى الروايات « ان ابليس كان له ملك سماء الدنيا ، وكان ينحـدر من قبيلة من الملائكة ، يقال لهم الجن ، وسموا الجن لانهم خزان الجنـة » .
ويبدو الصراع كان ملتهبا بين مادتى النار والطين ،

أو بين الملائكة والبشر ، اذ ان الله « خلق خلقا — من الملائكة — وقال اسجدوا لادم ، فقالوا لانفعل ، فبعث الله عليهم نارا فاحرقتهم ، ثم خلق خلقا اخر ، بشرا من طين ، وطلب من الملائكة ان يسجدوا لادم ، فابوا ، فبعث الله عليهم نارا فاحرقتهم » .

ومعنى هذا انه كان هناك اعتقاد اكيد في ان — طينة — الجن ارفع منزلة من تلك التى صيغ منها الانسان القديم ، وعلى هذا فقد عبدوا الجن ، واحلوهم محل الالهة منذ فترات مبكرة جدا ، كما يرى فريزر (١) الذى أورد حكاية « من مصدر عربى عن حادث موت ملك الجن (١٠٦٤ — ١٠٦٣ ق.م) وانهم كانوا يندبونه — على طول الشرق الاوسط — من تركيا حتى ايران وبغداد ، يضربون بالدفوف وينوحون ويشقون ملابسهم ، مهيلين على رءوسهم الطين والرغام » .

I — Thegolden Bough — V. 6.

الفصـــل الثـــامن

حكايات فولكلورية سودانية ومصرية

مجموعة حكايات فولكلورية سودانية ، جمعها الدكتور الاستاذ مراد كامل ، ونشرها فى كتاب تحت اسم « قصص سودانية » • بعض هـــذه الحكايات الشفاهية ، يمكن تصنيفه تحت مايعرف بحكـايات الجـان أو الحكـايات الخـرافيه ، وبعضها الآخر من نوع حكايات الحيوانات وبعضها الثالث قد يكون بقايا اساطير ، أو اساطير مهشمة أو « أشلاء أساطير » كما سبق أن لاحظ الاخـوان جريمة •

ورغم ان د • مراد كامل قد اعاد صياغة هـذه الحكايات الشـفاهية السودانيـة ، ونشرها فى شـكلها الادبى ، الا أنه بدا واعيـا ومـدركا فى محافظته الدقيقة الرصينة على أدنى مقولاتهـا ووحـداتها وتضميناتها ، كحـكايات فولكلورية ، قابلة للتجزئة والانقسام الى سلسلة متتابعة مـن الافكار والجزئيات ، ربما يسمح لها بالمقارنة مـع نظيراتها من حكايات مشابهة أو مشتركة فى النمط أو الانموذج •

والذى استوقفنى بالنسـبة لهـذه الحكـايات هو عثورى على نفس هذه الحكايات والحـواديت ، بكاملها فى حكاياتنا وحواديتنا الشفاهية المصرية ، فما من حكاية مفردة لاتتفق أو تتوحد مع نظيرتها المصرية • وهذا يعنى مدى الالتقاء غـير العـادى

بالنسبة لتراثى الحكايات الفولكلورية السودانية والمصرية بأنماطها ونماذجها بل وحتى تضميناتها وأدنى جزيئاتها •

وليس هذا بغريب بالنسبة للاسس والقوانين التى أمكن لعلم الفولكلور ارساؤها منذ مطلع هذا القرن ، بل الغريب هو ان يحدث العكس فيحل التنافر والمخالفة محل التطابق والتوحد ، بالنسبة لتراثى الشعبين المصرى وشقيقه السودانى •

ومرجع هذا التطابق أو التوحد للتراثين المصرى والسودانى ـ بالنسبة للحكايات الشعبية ـ هو الالتقاءات والاتصالات ، من تاريخية وجنسية ومكانية ولغوية بين السودان ومصر •

وتصل علوم ماقبل التاريخ ، بالعلاقة التاريخية لمصر القديمة بالسودان ، الى ماقبل عهد الاسرات ، فعن طريق السودان ، كانت تصل الى مصر حاصلات بلاد بنط من بخور وعطور ومر ، وكانت هذه الحاصلات ، جزءا حيويا ، من أخص خصائص المعبد الفرعوني وشعائره الدينية ، مما يؤكده نص حدوتة مصرية وسودانية ، من بين هذه المجموعة من الحكايات والحواديت المصرية السودانية المشتركة •

ولقد تدعمت العلاقة بين الدولتين ، منذ الدولة الوسطى ۲۰۰۰ ق • م • حين بدأ ملوك الاسرة

الثانية عشرة . يسيرون حملات الى السودان .
حتى تمكنوا من دخوله . ونشر ديانة آمون ،
وأقاموا قلاعا ومعابد «بوهين ودابنارتى ومرجيسيا
وشفلك وسمنة وأورونارتي الخ » وايضا مسلات
سيزوستريس الثالث ـ ١٨٧٩ ق.م ـ ولوحة
سنوسرت الثالث : « هذه حدودى الجنوبية وكل
من يحافظ على هذه الحدود الجنوبية ، لهو ولدى
ومن صلبى ، الابن الذى يحمى أباه » ، كما ان
كهنة آمون ، كانوا يقيمون فى السودان ،بالاضافة
الى اعداد كبيرة من المهاجرين المصريين ، من
حرفيين ورسامين وخطاطين وصناع وكهنة
ومحنطين .

وقد لعب السودانيون ، دورهم الشقيق فى
معاونة المصريين فى طرد الهكسوس ، خاصة
قبائل البجة والكوشيون ـ منهم النوبيون ـ
ويرى سلجمان ان البجة والمصريين من سلالة
واحدة .

وكان الملك كشتا أول من عرف من الملوك
السودانيين . واتسع سلطانه حتى تعدى الاقصر،
ولما مات خلفه ابنه الملك بعانخى فى حكم السودان
ومصر ، ولما مات بعانخي هذا ، خلفه أخوه وزوج
ابنته شبكة عام ٧٠٠ ق . م . وهو الذى نقل
عاصمة ملكه الى الاقصر ، وحارب الاشوريين ،

وابنه ترهاقا صاحب الحروب المتصـــلة فى غرب آسيا ، وهو الذى هزم سنحاريب ملك آشـور ، وغزا أورشليم ، واستولى على بيت المقدس ·

ويعرف هـؤلاء الملوك السودانيون الاوائل ، بملوك نبتة العظام · وهم الذين جلبوا الصـــناع والفنانين والمعلمين المصريين ، وساعدوا على نقل

المؤثرات الحضـــارية والشـــعائرية المصرية الى السودان ، وتبدى هذا فى عـادات دفن المـوتى والفن والعمارة ، الى جانب الكتابة الهيروغليفية ·

وخرج ملوك الســـودان أو ملوك نبتة ، مرارا لصد هجمات القرىوغيرهم من القبائل الليبيـــة والسامية المغيرة على مصر ·

وطبعا فان هذه الاتصالات المصرية السودانيـة المبكرة ، حملت مـع ماحملت التراث الشـــفهى والعقائدى لكلتـــا الدولتين ويرى البعض ومنهم سلجمان أن الختان الفرعونىمايزال هو السائد فى السودان ، كما أكده المقريزى بقوله : «واما النساء فمقطوع أشفار فروجهن ، وانه يلتحم حتى يشـق عنه للمتزوج » ، وهو الختان الذى مايزال ساريا فى قرانا المصرية خاصـــة الصـــعيد الاعـــلى ، حتى اليوم · كما ان كثيرا من القبائل والبطـون العربية قبل الاسلام ، كانت دائمـــة الهجرة الى

مصر عن طريق شبه جزيرة سيناء وبرزخ السويس ، مواصلة صعودها الى الجنوب ، فالصلات بين شمال الوادى وجنوبه كانت دائمة الحركة موثقة سواء من ناحية الجنس والسلالة ، أو من الناحية التقافية التقليدية أو من ناحية التراث الابداعى الجماعى الشعبى ، وسواء على طول عصور مصر الفرعونية ، أو البطلمية والرومانية والقبطيه والاسلامية واخيرا المعاصرة أو الحديثة ، منها مثلا توقيت قيام النورة العرابية فى مصر عام ١٨٨١ ونظيرنها الدعوة المهدية فى السودان فى نفس السنة •• وهكذا •

●●●

وقبل الانتقال والتعرض للموضوع الذى نحن بصدده ، أود ان اشير الى النقص الكبير الذى تعانيه حركة دراسة الفولكلور والاساطير ، وتخلفها المجدب الشديد فى عالمنا العربى وهو التراث الذى يحفظ له العالم أجمع نراءه الهائل والذى لا تدانيه أصالة تراث أى منطقة من مناطق حضارات وتراث العالم القديم هذا على الرغم من الصعوبات والمشاكل التى تحبط وتعثر المتصدى لدراسته نظرا لتعدد المصادر وكثرتها وتداخلها وتجدد النزاع القبلى على ملكيتها ، من ذلك مثلا أنه كان فى الجزيرة العربية واليمن والشام

وفلسطين ، الاف مؤلفة من تراث القبائل والملـل والنحل حتى الفترة المتأخرة التى لاتتعدى القرون الستة بين المسيحية والاسلام ٠

ومن ذلك أيضا متاخمة الشرق الادنى لحضارتين مبكرتين هما الهند وفارس اللتين واصلتا تسريب تراتيهما اليه بشكل مخصب متواصل ، مما دفع ببعض دارسى هذا العلم ، الى اعتبار تراث الشرق الادنى القديم ، وبرغم ثرائه وعراقته « تراث غير مكتمل الشخصية »

وحتى فترة قريبة ، كان هناك شبه أجماع من جانب جيل الفولكلوريين الاكاديميين والمستشرقين منهم بنفي ونولدكه والبارون دى ســاسى وكيث فالكونر ، عـلى القول بانهم ــ أى الاوروبيون ــ تعرفوا على قصة نبع التراث الاوروبى فى الهند ، وكان من نتيجة هذا مثابرة طويلة على جمع ودراسة لاهوت وأساطير وحكايات وخــرافات وفوازير الهنــد ٠

ونشــبت معارك طويلة ، حــول ماقال به المســتشرق تيودور بنفي ، وعالما الفولكلــور والاساطير الفنلنديان ــ آرنى وكارل كرون « من أن اصول حكايات وخرافات كل العالم مصدرهـا الهند » ٠٠ وطبعا لقيت هــذه النظرية معارضـة

شديدة خصوصا من بعض اصحاب مايعرف بالمنهج المقارن للبحث والتقصي عن المصادر الاولى أو الام للمأثورات الشعبية ، مثل مانهاردت ويوسف بديية وثومبسون ٠

فيرى ثومبسون ان دور الشرق الادنى ، تتعاظم أهميته فى السنوات الاخيرة نظرا لكونه المعبر الاساسي الذى عن طريقه تسربت كل الكلاسيكيات الهندية من الشرق الى الغرب ، ويمكن التعرف على ما اعترى التراث الهندي من تغيرات واضافات ، خلال الزمان والمكان ، مثل « البانشاتانترا » أى الاسفار أو الكتب الخمسة وما طرأ عليها من تغيرات وتحولات ، وهى تأخذ طريقها من الهند الى الفرس والعرب والسريانيين العبريين اليونانيين ، الى أن وصلت سريانها فى تراث وآداب الشعوب اللاتينية فى العصور الوسطى ٠ وينطبق هذا على « الجاتاكا » أو الحكم السبع ، ومرادفاتها فى محيط القصة ٠

ويضيف الاستاذ تومبسون : هذا الى جانب القيمة العظيمة لتراث الشرق الادنى الفولكلورى فى حد ذاته المدون والشفاهى « وحيث تروى الحكايات الشعبية ، بشكل دائم ، كجزء من النشاط اليومى المتواصل للاسواق والبازارات »٠

كما أن على رأس مصـــاعب وتعثر التصـــدى لدراسة تراث الشرق الادنى باساطيره وفولكلوره، تقف صعوبات أولها ندرة الحصـول عـلى موارده المتواترة ، بما يحقق تراكم أكبر كمية كافيـة أو ممكنة ، قابلة للمقارنة من أنماط الحكاية أو الملحمة أو السيرة أو العادة الطقسية محل البحث ٠

لذا فان محاولات الدراسة تعد الى الان محاولات شبه عقيمة ، والاكثر عقما واخطارا ، هو عـــدم تخطى المحاولة الجادة للتعرف على انفسنا واصول شعوبنا ومكوناتها وخباياها ، عن طريق هـــذه العلوم الشابة التى حققت الكثير ، أخصـها زرع واستنبات فضيلة التسامح ٠

●●●

واذا ماعدنا الى موضـــوعنا الخاص بمجموعـة الحكايات والحواديت والاحدوثات السودانية التى تنبه لاهمية جمعها من بعض مناطـق الســـودان د ٠ مراد كامل ، وما يطابقها فى حواديتنا المصرية أسجل أن هذه المحاولة الدراسية ، هى أيضـــا غير مكتملة ، نظرا لقلة النصـــوص المتعـبددة ، للجزئية الواحدة ، وحتى يمكن التوصل الى نتائج أكثر دقة ٠ وسأضرب مثالا لتوضـــيح أهميـــة التشدد على تعدد مرادفات المادة أو الحكـــاية أو الملحمة موضوع البحث ، والمثال هو الجمعيـــة

الادبية الفنلندية التى انشئت فى هلسنكى عام ١٨٣١ ، والتى تعد أقدم جمعية فولكلورية فى العالم • فعندما احتفلت هذه الجمعية بالعيد المئوى لنشر احدى ملاحمهم القومية عام ١٩٣٥ ، وهى ملحمة « كالافالا » ، وصل عدد التسجيلات والتدوينات من متنوعات هذه الملحمة من كل انحاء اسكندنافيا الى ١٣٠ ألف تسجيل فلولكلورى •

وكان أن بدأت بعد ذلك مرحلة الدراسة العلمية اليقينية لهذه الملحمة •

واذا مابدأنا بتناول واحدة من هذه الحواديت أو الحكايات السودانية ، التى جمعها د • مراد كامل ونظيرتها الشفاهية المصرية ، وهى حدوته تدور حول ملك واسع الجاه والثراء تحفظ له الذاكرة الشعبية فى كلا النصين المصرى والسودانى ، اسمه وهو « الملك الاسد »• وفى تقديرى ان مابقى من حكايات وحواديت الملك الاسد هذا ، يشير الى انها بقايا سيرة ، تدور حول حياة هذا الملك ، مثلها فى هذا مثل الحكايات المتبقية من البقايا الشفاهية لسير الملك معروف • وسيف بن ذى يزن ، وحسان الغالبة والملك الشاطر حجازى ووزيره البين •• وسير التباعنه ملوك اليمن ، فى حكاياتنا المصرية •

وملخص الحكاية السودانية عن الملك الاسد

هو انه اشترى حمولة عشرين سفينة من ـ الزباد ـ أو ـ العصفر في الحـــدوته المصرية ـ وطلا به جدران قصره ، ليطيب اريجه وينشر رائحتـــــه الزكيه في ارجائه ، وكان هــذا الفعل الذى أقدم عليه الملك الاسد ، بمثابه زلته أو سقطته ، التى بمقتضاها زالت عنه نعمته وذهب جاهه فاصبح « خاوى الوفاض لاينضم مقره على شيء مما حوى، فقد ابتلع اليم سفنه بما تحمــل ، وانطوت رمال الصـــحراء عــلى قافلته بذهبهـــا واحجـارها الكريمة ، وضاقت الدنيا في وجهه ، وسدت أمامه السبل ، واستحال الناس ـ شعبه ـ يكيلون له اللعنات بعد ان كانوا السنة حمد وثناء ، فهجـر الاهل والوطن واخذ يضرب فى الارض على غـير هدى » ، وكــان أن ـ عبر ـ الى مملكــة أخـرى ، وعمل صبيا فى حانوت حلاق ، يعمل ليعيش •

وتتوالى الحكاية ، حتى يصـــل الى حـــانوت الحلاق ابن الملك الذى كان قد سبق أن شهد مجده وثراءه ، حين باع له الزبد أو العصفر ، فرآه وقد بالت عليه حمارته • فعرفه ابن الملك ، ودفـــع لصاحبى الحانوت دينه واخذه الى قصره • وساعده بعد ذلك فى استعادة سلطانه ومجده ، الى ان عاد « ذابل الامس فى يده يانعا ، ويابسه مخضرا » ،

وهكذا ينتهى النص السودانى ٠

ولقد جمعت من حواديت الملك الاسد ، أربعة نصوص ، منها هذا النص المصرى الذى يبدأ هكذا :

« كان الملك الاسد اغنى ملك فى الدنيا ، ومكنش فيه فى مملكته لابيع ولاشرا ولا مقايضة ، واللى محتاج حاجة ياخدها بالصلاة على النبى ٠ لحد مازار الهاتف فى ليلة الملك الاسد فى المنام وقاللو : ياملك الدنيا حاتزول عنك »

فترك مملكته وركب حصانه ومشى أرض الله لخلق الله ، الى أن صادفه فى الطريق بحر غويط ، نزل فيه الحصان عائما بالملك ، وفى وسط البحر ، غطس الحصان والملك ممسكا بشعره ، الى أن غاب الحصان تماما فى أعماق البحر ، ولم يتبقى منه سوى شعرتين فى يد الملك ، فقال الملك :

« لما تروح تقطع السلاسل ، ولما تيجى تيجى على زبيبة » ٠

واستبدل الملك ملابسه ، بجلباب قديم ـ خيشة ـ كان يرتديها أحد الشحاتين ، ونزل المدينة والتحق بخدمة رجل فطاطرى « يولع النار تحت صينية الفطير » ، وهكذا الى أن يصل ابن الملك الذى كان قد سبق له أن باعه العصفر ،

فأخذ منه حماره ليربطه ، فبال الحمار عليه ، فقال الملك :

« أقبلت ـ أي الدنيا ـ لما باض الحمام على الوتد ، وأدبرت لما شخ الحمار على الملك الاسد » ٠

وتتطابق نهاية الحكايات الاربع المصرية ، مع الحكاية السودانية فى رجوع ملك الملك الاسد اليه مرة أخرى ، بعد أن أوفى مكتوبه أو قدره أو وعده ، الذى هو عقابه فى ذات الوقت ـ مثلما حدث لأيوب ـ حين استهجن ـ النعمة ـ التى هي الزبد أو المر أو العصفر : أقدس مقدسات المعبد المصرى ـ والسودانى ـ والذى كان يجلب من بلاد بنط ، عبر السودان الى مصر ، منذ فجر التاريخ ٠

واذا ما تناولنا حكاية ثانية ، أوردها د ٠ مراد كامل من السوباط ، وهى حكاية « شيخ الاسود » وموجزها « أن رجلا هرب من مدينته بعد أن قتل الملك أخاه وابنه واستولى على أملاكه ٠ وعاش الرجل فى الغابة وأصبح حطابا ٠ وكان فى هذه الغابة أسد وفأر ، وكان الفأر يميل الى معاكسة الاسد ، فقال له الاسد يوما : كيف تجرؤ على معاكستى وأنا أقوى المخلوقات » فأجابه الفأر ، بان القوى هو الذكى « فأنا أقوى منك بذكائى ، وأقوى منى ومنك الانسان » ٠

وبينما الاســد يواصل احتداده ، مدافعا عن أنه أقوى المخلوقات ، جاء ـ الانسان ـ الحطاب ، ففز اليه الاسد قائلا :

« أيها الانسان هل لك فى مصارعتى لنرى من منا الاقوى »

فقال الحطاب :

« هذا حسن ولكنى تركت قوتى فى البيت . فانتظرنى الى الغد ، حتى احضر قوتى » .

وبهذه الحيلة التى ستكون موضوع بحثنا نجا الحطاب من الاسد ، نظرا لان بقية الحكاية ، دخيل على هــذه الجزئية الهامة ، التى هى فى الاصل حكاية حيوان متطابقة مع نظيرتها المصرية . بل ان البعض يعتبرها أشهر حــكاية حيــوان من فوكلور شعوب كل العالم .

ويكتمل الجانب ـ الاستطرادى ـ فى الحــكاية الســودانية ، بسلسلة من الحيل المتوالية ، التى يهزم بها ـ الانسان ـ الحطاب ، الاسد ، ويخضعه تماما لسيطرته ، بل هــو يتمكن فى النهاية من ترويض كل أسود الغابة ، وبهذا يصبح شــيخ الاسود ، ويتمكن فى النهاية من الانتقام لما لحقه من جــور الملك الظالم ، الذى كان قد قتل أخاه وابنه وشرده من البلاد .

ومثل هـذا الاستطراد دخيل تماما على الجزئية السابقة ، التى هى فى حد ذاتها حكاية مكتملة ٠ وكما يرى عالم الفوكلور، الاستاذ لويس جنزبرج :

« ان القصص الاستطرادية المتعرجه الاحداث ، جديدة تماما ودخيلة على الفولكلور الاوروبى المبكر، وفولكلور الشرق الادنى عامة » ٠

والنص الشفاهى المصرى لهذه الحكاية ، أكثر تحديدا وأصالة ، لذا سأورده كاملا ، كما حققته من ستة مصادر مختلفة ، أكملها نص سمعته من مصدر بجوار بحيرة قارون بالفيوم باسم « الديب والتمساح » وهذا هو النص :

« ديب مصاحب تمســـاح ، ومتعود يزوره كل يوم ، يروحــلو على شـــط بركة قارون ، وينط يركب على ظهره ، (١) والتمساح يفسحه على وش البركة ، وبعد كده يرجعه على الشط آخر النهار ٠

مرات التمســـاح ــ وليفته ــ زعلت واتقهرت وغارت من الديب ٠

وفى ليلة عملت عيانة ٠ ولمـا جاء التمســـاح يسألها : عيانه بايه ؟ قالتلو : الحكيم قاللى دواكى على قلب ديب ٠

التمســـاح قاللها : بسيطة الديب صاحبى ، وبكره الصبح حايجينى وأجيبلك قلبه ٠

---

(١) يلاحظ أن التمساح ، هو اله الفيوم ٠

وتاني يوم الصـــبح ، لمـا الديب جـا يزور التمســاح ، ونط ركب على ضهره زى عوايده ، التمساح جابو في وسط البحر ، وحكالو حكاية مراته • فالديب قاللو :

« لا مؤاخذه يا تمساح ، أنا النهارده سـايب قلبى فى البيت ، رجعنى تانى للبر ، وأنا أروح أجيبلك قلبى من البيت وآجى حالا » •

التمســاح رجع الديب على البر ، والديب أول ما حط رجله على البر فطس على روحه من الضحك ، ولما التمساح سأله :

« بتضحك ليه ؟ »

الديب قاللو :

ــ بضـحك عليـك •
عليـــل ما دويت •
وصاحب ما بقيت •

والاختلافات بين النصين الســودانى والمصرى لهذه الحكاية ، هى مجرد متنوعات أو اشتقاقات مرجعهـا التواتر الشـفاهى الذى يعترى التراث غير المدون عامة • أما النص الام المدون لنمط هذه الحكاية فيرجع الى أكثر من ألفى عام •

وسأورد هنا النص العربى لهـذه الحـكاية ، والذى يعد أقدم نص مدون ، كما يجمع على هـذا

ثلاثة من كبـــار علماء الفوكلور ، هم د٠ موسى جاستر ، الذى أورد هذا النص العربى فى كتابه « قصص الطيـــور والحيوانات » ٠ والبروفسير لويس جنزبرج ٠ وبازل ٠ ف ٠ كرتلى ، وملخص النص العربى المدون كما يلى :

« ما أن انتهى الله من خلق العالم ، حتى أمر ـ عزرائيل ـ مـلاك الموت ، أن يلقى فى البحـر بمجموعة متنافرة من الحيوانات ، لكى يعيش كل حيوان مع ما يخالفه من حيوانات ٠

وتمـكن الثعلب بمكره ودهائه من الافلات من قبضة ملاك الموت ، وحتى لا يلقى به فى البحر ٠

وفى نهاية العام ، أحصى الحوت « ملك البحر » جميع حيواناته ، لكنـه افتقد الثعلب ، فأرسل الحوت برسله من سمك البحر لاحضار الثعلب ، وكان قد سمع بمكره وشدة دهائه ، فرغب فى أن يحصل على قلبـه ويلتهمه ، حتى يصـــبح له ما يمتاز به الثعلب من حنكة ودهاء ٠

وعندما وصلت الاســـماك ، رسل الحوت الى الشـــاطىء ، والتقت بالثعلب ، احتالت بدورها عليه ، فقالوا له أن الحوت ملك البحر قد مات ، وأنهم جاءوه لينصبوه ملكا عليهم عوضا عنـــه ، وكان أن امتطى الثعلب ظهر احـــدى الاسماك ،

لكنه وبعد أن غوطت به الاسماك داخل البحر ، خاف وتشكك فى الامر ، ولما طلب منهم ايضاحا لحقيقة ما يحدث ، أخبرته احدى الاسماك ، بحقد الحوت عليه ، نظرا لما يتمتع به من دهاء وسعة حيلة ، لذا رغب فى التهام قلبه ، ليصبح وريثه فى الدهاء ٠

هنا أجاب الثعلب للاسماك ، بأنه كان من واجبهم تذكيره وهو على الشط لكى يحضر معه قلبه ، نظرا لان من عادة الثعالب ، أن تترك قلوبها فى منازلها قبل الخروج الى الخلاء ٠
وكان أن أعادته الاسماك الى الشاطىء ، لكى يسرع ويحضر قلبه ٠ لكن ما أن وضع الثعلب قدمه على البر ، حتى سخر من غباء الاسماك التى تعتقد أن مخلوقا بدون قلب يمكن أن يعيش ٠

وكان أن فتك الحوت برسله من الاسماك الاغبياء ، والتهم قلوبهم ٠

ولقد عكف اثنان من كبار علماء الفوكلور ، هما د٠ موسى جاستر و د٠ جنزبرج ، على دراسة هذه الحكاية أو الفابيولا ، للتعرف على مصدرها المدون الام ٠ ونظرا لانها تعد من أوسع حكايات الحيوان فى شفاهيات كل العالم ، اذ تمتد متنوعاتها الشفاهية المتواترة من قرى زانزبار حتى موسكو،

ســـوى أن اختلافات طفيفة تعتريها ، فى كوريا واليابان والفليبين والملايو وأندونيسيا ٠

واتفق الباحثان عـلى أن النص العربى ، الذى نقله اليهود الى العبريه ، وأورده أحـــد كتابهم وهو ، بن سيرا ، احدى موسوعاته عن الحـكايات الشعبية ، ونعرف بالفية « بن سيرا » ٠

واتفق الباحثان على ان النص مستمد بدوره من منابعه الهندية ، وبالتحديد من حـــكاية « القرد والتمساح » التى يمكن تتبعها فى كتاب كليـــلة ودمنــة تحت اسم « القرد والسلحفاة البرية » ، كما أمكن التعرف على ثلاثة متنوعات لنفس الحكاية فى « الجاتاكا » التى يعتبرها البعض الاصل الذى انحدرت منه كليلة ودمنـــة ، والتى تحوى أقدم المدونات الفولكلورية التى تسرى فى شـــفاهيات كل العـــالم ، ومن المعتقد أن الجاتاكا دونت للمرة الاولى فى شمال الهند ، قبل عصر الملك ـ أسوكا ٢٧٠ ق٠م٠ وامتصت هــذه الشرائح الشفهية أو الجاتاكا ، أغلب الجســد الفولكلورى للهند ، ومع انتشار البوذية خارج الهنــد سرت الجاتاكا وبها حكاية القرد والتمســـاح ، والتى يستبدل فيها الديب محل القرد فى النص الشفهى المصرى الذى أوردته ، والصياد أو الانسان فى نظيريهما النص السودانى الذى أورده د٠ مراد كامل ٠

ويحتفي دارسو الفولكلور بحكايات الحيوانات والطيور والنباتات ، والزواحف احتفاء خاصا ، هذا على الرغم من ايجازها الشديد ، بل وواقعيتها الشارحة المحددة وهناك من يرى أن حكايات الحيوان هي بداية الاساطير، وأنها أكثر قدما وبدائية منها. اذ أنها كانت وعاء لشرح وتقديم الافكار والمعتقدات، أي أن أكثر هذه المعتقدات ، كان يتجسد في شكل حيوانات وطيور ، « فالاله زيوس كان نسرا والآلهة أتينا كانت بومة ، وهيرا كانت بقرة ، والاله النوردى نور كان طائر جنة صغيرا ، والاله تير كان ذئبا ، مثله في هذا مثل الاله الرومانى مارس ، وضريبه السليتي ديباتر » .

كما أن هنا شبه اجماع من جانب دارسى الفولكلور على أن قصص الحيوان الشارحة ، هى المصدر الام أو الاصل التى منها انحدرت الخرافات.

وقصص الحيوان الشارحة ، هي تلك القصص التي فسر بمقتضاها الاقدمون الفرق بين حيوان وآخر ، بين طبيعة ولون وخصائص الذئب عن الحمل ، ولون الحمامة الابيض المخالف للون الغراب الاسود ، وكذلك التفسيرات الغيبية التى فسر بها البدائيون السبب أو السر فى بريق عيون القطط فى الظلام ، واستطالت أذنا الارنب والحمار ـ الخ .

وفى واحدة من هذه الحكايات السودانية ، التى موطنها النيل الابيض ، تكشف لنا الحكاية ، كيف أن الدنكا لا يضربون الكلاب ، اعتقادا منهم فى أن الكلب هـو أول من جاء بالنـار لقبيلة الدنكا • فلقد « عاش الدنكا حقبة طويلة لا يعرفون النار ، وكان الرجل منهم اذا صاد سـمكة قطعها قطعا ووضعها في ماعون وتركه تحت وهج الشمس » •

وفى حكاية شارحة أخرى من ـ الشلوك ـ عن البقرة والـكلب ، موجزها أن البقـرة خلقت فى السماء ، ووقعت على الارض فتكسرت أسنانها ، ولما رآها الكلب ، أغرق فى الضحك حتى انفتق شدقاه وبلغا أذنيه وظل على هذا الحال حتى اليوم •

وما من حيوان أو طائر أو نبات ، لم تصـاحبه مجموعة حـكايات ، تحدد أوصـافه وأخص معالمه وتحيطه بتفسير عصور ما قبل العلم ، كما هـو اضح فى هـذه المجموعة من الحكايات السودانية المصرية •

كلمـــة أخـــيرة عامة
حـــول
الانســـان العربى ... والحضـــارة

ترددت لفترة في اصدار وجهة نظر ، أو كلمة أخيرة ، يمكن ان تحيط هذه المجموعة من الدراسات النظرية حول تراثنا الفولكلورى والاسطورى المعاش اليوم ، والذى عن طريقه تتكيف معاملاتنا وحركتنا ومثلنا اليومية على طول هذه المنطقة العربية التى يوحدها الاصل اللغوى الواحد المتجانس ، وطبيعي وبالضرورة تعيد اللغة تشكيل وصياغة الذاكرة والوجدان ، وبالتالى هذا التراث .

ولا يمكن بحال الامساك بافاتنا وسلبياتنا وما يفت في عضد أمتنا ، من المحيط الى الخليج كما يقولون ما لم نعد النظر العاقل الى الخلف أو الوراء ، فما أحوجنا الى اعادة النظر الهادىء العاقل الى الوراء .. فى غضب .

ولا يمكن بحال تحقيق ما نرجوه ونأمله من انفتاح ، ما لم نعد تعرف مواطىء أقدامنا ، أين نقف من عالمنا الذى نعيشه بضروراته وحتمياته العقلية العلمية التكنولوجية . أين نقف من اعادة تدخل وصياغة العقول العلمية الاليكترونية والتكنولوجية الأبعد من الاجتهادات الادبية — لمثل هذا التراث الطوطمى المنحدر من الانتيكات .

وما أبلغ الثقافة الشعبية المضادة ، التى تسخر

من كل ما هــو فعلا أنتيكى أو أنتيكة أو متحفى أو تحفة .

بمعنى أن كل ما هو قديم ، أو سالف أصبح اليــوم مدعاة للسخرية ، فى عصر يحتم ممارسات وأفكارا ومقولات وميكنزمات جديدة .

ومن الصعب جــدا تصــور ، حجم الكم من موروثات العالم القديم أو عالم ما قبل العــلم ، ومعايشتها لنا عبر أدق دقائق حياتنا اليوميـة . وأن القطاع الغالب من هــذا الموروث العالق أو المعايش لنا يرجع الى آلاف مؤلفة من السنين ، كما لا يمكن تصور مدى السالب أو العادم الذى يسببه هـذا الاستمرار ، ومدى عرقلته لطاقاتنا العقلية والابداعية والانتاجية بل والثورية .

ولنـا أن نتصور أن هم أوربا والعالم الجـديد عامة الاول ومعاناتها ، تكمن فى محاولة التخلص من براثن وموروثات هــذا العالم القديم ، الذى نحن بؤرته الرئيسـية . هنـا على أرض شرقنا العربى ، أو الاوسط .

كما أن لنا أن نتصور ، وما أشقه من تصور ، أنه بينما لم نبدأ نحن بعد فى نقل وهضم وتفهم ما أنجزه العالم المتحضر فى مجـال حركة العلوم الانســانية التى هــدفها الاول بناء واستثمار الانســان ، بما يحقق توافقه وتكيفه مع حتميات العصر العلمى الذى نعيشه وما يصطرع فيــه من

أفكار اشتراكية .
وهى الانجازات التى حدثت على مدى القرون الثلاثة الاخيرة .
فبينما يدخل العالم الجديد مراحله المذهلة فى التوصل الى مقدمات ونتائج اليكترونية فى مجال دراسة الانسانيات . لم نبدأ نحن بعد .
ففى الوقت الذى خلع العالم من حولنا أرديته ممثله فى تراثه وموروثاته الجمعية ، ووضعها فى حجمها ومكانها وواقعها الصحيح ، ربما منذ ما بعد عصر النهضة الاوروبيه ، والثورة الفرنسية وثورات عام ١٨٤٨، وعصر التنوير أو العقل وهو القرن ١٨ ، بظهور واكتمال الطبقة الوسطى، والتحول من عالم اقطاع القرون الوسطى الى عصر التنوير ، أو من عصور ما قبل العلم والعقل ، الى العقل واعادة النظر للانسان وتناوله ، على اعتبار أنه حيوان عاقل ، لكن جانبه الحيوانى أعمق جذورا من جانبه العقلى .
فلقد جاء عصر التنوير أو القرن ١٨ ، بأكبر ثورة فى اتجاه تسييد العقل ، والنظر للانسان على اعتبار أنه نتاج طبيعى تطورى بعد دارون .
ومنذ ذلك القرن الى اليوم اعتبرت العلوم الاجتماعية ، متضمنة الفولكلور والاساطير فرعا من العلم الطبيعى، بل ان البعض ــ ومنهم رادكليف براون ــ تعاملوا مع العلوم الاجتماعية ، على أنها

العلم الطبيعي النظرى للمجتمع الانسـاني ، أو علم المجتمعات الانسانية ـ أو علم دراسة الإنسان وأفعاله ـ أو علم دراسة الثقافة ، بل توصلوا الى اعتبار الظواهر الاجتماعيه ، أيا كانت سواء في السلوك اليومى للشارع ومطباته المقلقة لاصحاب السـيارات ـ والاتوبيس ، والدعارة ، أو سلسلة النسب والقرابة أو الرشوة أو العلاقات العامة ، باختصار كل ما يمـكن أن يشكل ظاهرة داخل المجتمع ، مثل الامية ، والانفجار السكانى ، وأزمة المساكن ، وأزمة التعليم ، والبطالة ، كل هـذه الظواهر تجىء كنتيجة مترابطة للبنـاء الاجتماعى المعين ٠

باختصار أكثر فانه اذا ما كان لكل داء دواء ، فان دواءنا وشفاءنا ، هـو فى اعادة التدقيق في تراثنـا وعاداتنا ، فى تركة الاسـلاف الغيبية الطوطميـة ، واعادة تعرفها ـ تفليتها ـ بنفس القدر والمعدل الذى حققه العالم المتقدم ٠

وطبعا توصل العـالم المتقدم ، أو المسـتهدف للعقل لمثل هـذه النتائج بعد الجهود المضـنية التى أرساها العلماء الاجتماعيون أمثال تايلور ، ولانج ، وفريزر ، ومورجان ، وجوردون تشايلد ، ويوسف بيديه ، خاصة فى موسوعته الكبيرة عن النوادر والنكت والفوازير ٠

فيلاحظ أنه حتى النوادر والقفشات اليومية ،

لها موسـوعاتها ودراساتها الفنية منــذ عصر التنوير . كما يلاحظ أن الاهتمام بمثل هذه العلوم الاجتماعية ، وتاريخ الثقافة ، ازدهر فى أوربا الاستعمارية ، كل هــذا الازدهار كنتيجه للدور الايجابى والتطبيقى وجانب المنفعه الذى أسـدته هــذه العلوم فى علاج الظاهرات الاجتماعية ، وأحــكام تملكها والسيطرة عليها ، من ذلك كل ما يتصل بآفات الامية ، والمسـاواة بين الجنسين وكذلك بالنســبة المجنس وتابواته أو محرماته وقضايا العلاقة بين المرأة والرجل والتوصل الى نتـائج أكثر صـحية ، وأكثر ايجابيـة ، وأكثر ارتباطا بالحضـارة واثراء لها . والتفوق فى برامج التربيـة ، والانضباطات السـكانية البالغة الدقة فمعظم الدول الاوربية تحتفظ بأحجامها السكانية بالقدر الذى تتطلبه بالضبط ، منذ مطلع القرن الاخير حتى اليوم .

كذلك استفاد العالم المتقدم من تملكه ومعرفته بهذه العلوم ، فى تفجير أقصى طاقاته الانتاجية ، وارساء القدر الكبير من التسامح . كذلك التوصل الى ميكانيزمات وممارسات جديدة متمشــية مع الحتميات العلميـة التكنولوجية ـ موازية لها فى حركتها وثورتها العامة .

وبالطبع لا يمكن انكار ، أن جانبا كبـــيرا من النشـاطات والنتائج التى توصلت اليها هــذه

العلوم ، قد سخر لخدمة الاغراض والمصالح الطبقية والاستعمارية •

فمنـــذ مطلع هـــذا القـــرن ، أكثرت الدول الاســـتعمارية من استخدام الخبراء الاجتماعيين ، وتعيينهم مستشارين فى اداراتها الحكومية ، ومن هنـــا استفادت الطبقات الاستعمارية من معارف ومهارات أولئك الخبراء ، فى دراســـة العـلاقات الاجتماعية ، والصناعية ، والعرقية •

فمثلا عن طريق دراسة أحد علماء الانثروبولجيا المعاصرين وهو د• شتاين ، على الفروق العرقيـة فى الاســـنان وحجم وشـــكل الفك ، استغلت الشركات التجارية الامريكية تصميم أطقم أسنان مناسبة ، وحققت أرباحا هائلة ، كذلك بدأ الخبراء يدرســـون استعداد الجماعات البشرية المختلفة ، لتقبل أمراض معينة ، وألوان معينة ، وســـلوك محدد ، وموسيقى محددة ، وأفلام سينما بعينها ، وكتب ، وسلع استهلاكية ، وهكذا •

ولعب الخبـراء الاجتمـــاعيون ، دورا هاما فى الكشف عن اســـتعداد الجمـاعات المتباينة لتقبل ســـلع ومنتجات متلائمة ، مع استعداداتهم حتى حتى لتقبل أمراض بعينها •

أى أن فى الاستفادة من هذه العلوم المترابطة ، تحقيقا لمنافع ومصالح ندحل حتما فى الاستثمار العام ، كذلك لعبت هذه العلوم الدور الحاسم فى التبصير بعنصرى الطاقة والمبادرة وأهميتهما فى نقل مراكز الحضارة • وهو نفس ما حدث بالنسبة لكل من الولايات المتحدة واليابان • ففى أمريكا ــ لا يغيب عن ذهن القارىء ــ أنها قامت على فكرة أو ايديولجيه أمريكا ، أرض وموطن العالم الجديد ، وهى الفكرة التى لم تتخل عنها الى اليوم ، وحاولت جاهدة خلع أرديه كل ما يربطها بالعالم القديم ، بموروثاته وميكنيزماته وعاداته ومثله المكتسبه منذ عصور ما قبل العلم • وهذا بذاته هو موجز الحلم الامريكى أو الايديولجية الامريكية القومية ، ومثل هذا الفكر وهذا التصور هو بالتحديد ما جعل من أمريكا أمريكا ، حيث لا جاذبية تشدها نحو الماضى التاريخى ، حتى بالقدر والمعدل الذى تكونه أوربا عبر الاطلنطى •

ولنا ان نتصور حجم ومعدلات الاندفاع نحو المستقبل بالنسبة لهذا العالم المستقبلى الجديد، بالمقارنة مع العالم الثالث أو العالم القديم أو عالم السلف والاسلاف •

فاستنادا على فهم شيخ المؤرخين أرنولد توينبى

بالنسبة لعاملي الحضارة ٠ من مستقبلية يأخذ بها العالم الجديد ، فى أمريكا واليابان وصين ما بعد الثـورة الثقافيـه ، ومن سلفيه ، تغرق العـالم القديم ، فتطغى ماضيه على حاضره وتحيل شعوبه الى سباحين ضد تيار ومسار الزمن ٠

ورغم أن توينبى ـ خاصـــة فى آخر كتبه او مذكراته « خبرات » ـ قد عمم فهمه عن المستقبلية والسلفية ، بشكل أبعد من الايديوجيات والنظم العقائدية على اعتبار ان كلا من الدول الاشتراكية والامبريالية تأخـــذ بالقطع بالمسـتقبلية وتغرقها أحـــلامها ومخاطرها واقتحاماتها حتى للفضـــاء الخـارجى ٠

أى أنها راية واحدة موجزها عبادة المستقبل أو التقدم ، يقف تحت لوائها ويأخذبها العالم الذى تخلى عن رمم الاســـلاف ، طمعا فى تحقيق أقصى نفع أو منفعة أو تقدم وصل الى حد انكار كل شىء فيمـا عـداه ٠ التقدم الذى يتغنى به الشـــاعر تنيسون :

الا أننى لا أشك أن غاية تجرى متزايدة فى جميع

العصـــور

وان أفكار الرجال تتسع كلما دارت الشـــموس

وما من عبث تلك الابعاد التى تفصـــلنا عن منارة الوصـــــول
فلنسر قدما وليدر العالم العظيم فى دروب التغير ذات الرنين
فان خمسين ســــــنة فى أوربا أفضل من ألف فى الصين .

وطبعا كتب ـ مبشـــــرا الانفتاح الامبريالى ـ تنيسون أبياته هذه ، عن ان خمسين ســــنة فى أوروبا ، تفضل ألفا فى الصين ، قبل كلتا ثورتيها العظيمتين ، السياسيه الاجتماعية الاشتراكية ، ثم ثورتها الثقافية ، التى انتزعت كليـــة جذورها الســـلفية ، لتحيلها الى الصين المســـــتقبلية أو التقدميـــــة .

وهذا هـــو بالضبط مفهوم الثورة الثقافية كما أرادها ماو ، نفض تراث العالم السالف أو القديم، وهـــو طبعا ما لم تفعله أوربا ـ بالقدر الكافى ـ ومن هنـــا يمـــــكن قلب مفهوم تنيسون رأسا على عقب ، فان خمسين سنة فى الصين اليوم ، تعدل ألفا فى أوربا .

أليس هـــذا صحيحا .

ومن غير المفيد طبعا ، انكار ملحمة التنوير التى قادها كتابنا ومفـــكرونا كل فى مكانه ، منـــذ ثورة الدكتور طه حسين الموءودة لعقلنة هذا التراث عام ١٩٢٣ ، والتى طرد بسببها من الجامعة المصرية

ومن الطريف أن أحـــد كبار علماء الانثروبوجيا والاساطير المعاصرين ، شهد هده الثورة الحقيقية التى قادها طه حسين ، ونحدث عنها فى احد كتبه الهامة ـ الالهة القمرية ـ هو الشاعر الانجليزى ، روبرت جريفز ، الذى كان يقوم بتدريس الادب الانجليزى بجامعة فؤاد فى ذلك الوقت ، والذى يعتبر اليـــوم من أهم من كتبوا واضافوا لتراث البحر الابيض عامــة ، وتراثنا العربى الســـامى بشكل خاص •

وتســـلم الراية بعد طه حســين ، تلاميذه : د• سهير القلماوى فى رسالتها عن ألف ليـــلة وليلة ، و د• عبد الحميد يونس ، فى رسالته عن سيرة بنى هلال ، و د• لويس عوض خاصة فى بحثه عن الزير سالم ، وكتاباته عن الحضـــارة ، وثورة العقل • و د• ســـيد عويس فى دراساته الاجتماعية الرائدة •

وتتوالى جهود كتابنا ومفكرينا فى هذا المجال ، وأبرزها مؤلفات د• حســـين فوزى وسندباديانه المتفوقة ، وذلك المنهج العـــلمى المتقدم الذى لم يقدر له الاستمرار والنمو بما كان مقدرا له والذى أرساه فناننا الموسوعى الاستاذ الجليل يحيى حقى عند انشائه لمصلحة الفنون ، وانشاء مركز الفنون الشـــعبية ، وهى الفترة التى ازدهرت فيها بحق

كتابات رشــدى صالح عن الادب الشــعبى ، والاشراف على انشاء بعض الانشطة الشعبية •

الا أن جيل علماء الدراســات الانســانية ، لم يتخط حدود الجامعــة ليجدث صــداه التثقيفى الجماهيرى مثل الدكتور أحمـــد أبو زيد ، الذى كان له الباع الاوســع فى نقل وشرح والتبشير بأعمال :

تايلــور ، وفريزر ، ولانج ، وشــتراوس ، ومؤلفات الدكتـــور عاطف غيث ، وغيرهما ، من جيل العلماء الشبان ، أمثال :

لطفى فطيم ، وعبد الحميد حواس ، والعنتيل ، وصفوت كمــال ، وحلمى شعراوى ، و د • نبيلة يس •

وما من شك فى أن مصر العربية التى تواصل تحولاتها الاجتماعيةلصالح الطبقات المنتجة العاملة ستتخلص قسرا وبالضرورة من كل آفاتها الحضارية المعوقة •

ولعل الاسلحة الحقيقية فى هـــذا المجال هى : أفضل استخدام ايجابى ممكن لوسائل الاتصالات ــ الالكترونية ــ الجماهيرية •

مراجع أجنبيه

1 — Folklore and Anthropology — William. R. Bascom.
2 — Jewish Encyclopidia.
3 — Dictionary of Folklore.
4 — Brewer's Dictionary of Phrase and Fable.
5 — Judaism in Islam.
6 — Finnish Folklore — J. and Kaarle Krohn.
7 — Dictionary of all Scriptures and Myths — G. A. gaskell.
8 — S. N. Kramer — sumerian Mythology.
9 — Semitic Mythology — New York. 1926.
10 — The Golden Bough. Sir. J. Frazer.
11 — Egyptian Tales. K. M. Flinders Petrie.
12 — The Dying God. Part II Frazer.
13 — The Ancient World. T. R. Glover.
14 — Malinowski, Bronislaw. Science, Magic and religion.
15 — Evans Pritchard. Witchcraft, oracles and Magic.
16 — Radcliffe Brown. structure and Function in Primitive Society.
17 — Frankfort, Henri. The Birth of Civilization in the near East.

ملاحم مصرية وعربية

الجزء الثانى

بقلم : شوقى عبد الحكيم

يتضمن نصوصا ودراسات حول الملاحم والبالاد الشعرية الآتية :

١ ـ سارة وهاجر .

٢ ـ يوسف وزليخة .

٣ ـ عزيزة ويونس ـ وسيرة بنى هلال .

٤ ـ ملحمة مهشمة حول : تربيـة النبى موسى فى مصر ، والخروج .

٥ ـ قميص النبى محمد .

٦ ـ النبوت .

٧ ـ حبيب بن مالك .

٨ ـ سعد اليتيم أو « الملك فاضل » .

٩ ـ أيوب « نبى الادوميين » .

١٠ — الشاطر حجازى .

١١ — ملحمة جلجاميش العراقية .

١٢ — حسن ونعيمة « والآلهة المزقة » .

١٣ — شفيقة ومتولى « وبدء المحرمات الجنسية »

١٤ — الملك معروف « واليوطوبيا العربية »

١٥ — الملاحم العبرية : « طالوت وجالوت » و « شمشون ودليلة » .

١٦ — سيف بن ذى يزن الحميرى .

١٧ — ورد وسلبند .

١٨ — شخصيات ملحمية مثل : عوج بن عناق ، ذا القرنين، المهلهل ، التباعنة ملوك اليمن ، الشطار ، ملحمة الأقطاب الأربعة ، الا عوان ، البين ، عبيد الغالبة، الاله — الحمار — سعد الدين ، نعنانه .

صدر من هذه السلسلة :

ميونيخ كيف ؟ صــــفحات مجهــولة من التاريخ المصرى ــ الحركات السرية فى الاســلام ــ مذكرات سعد زغلول ــ أسرار الماضى ــ مشاكل أطفالنا النفســية ــ بطولات مصرية (من عمر مكرم الى بيرم التونسى) ــ أحمــد شوقى والادب الحديث ــ ثار ابن عنترة ــ سيناء الحرب والمكان ــ ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى ــ شعاع من طه حسين ــ المصريون والحرب ــ وماذا بعد ٦ أكتــوبر ــ سيكولوجية الشخصية المصرية ومعوقات التنمية ــ بابلونيرودا شــاعر الحب والنضال ــ فصــول من التاريخ الاجتماعى للقــاهرة العثمانية ــ الرحلة الى الاخرين ــ حقــائق أساســية فى الاسلام ــ مذكرات حرب أكتوبر .

تطلب من

مكتبة روز اليوسف

شارع قصر العينى ــ ٣٣ ــ شارع أمين سامى

تفتتح قريبا

كتاب روز اليوسف

رئيس مجلس الإدارة

عبد الرحمن الشرقاوى

رئيس التحرير

فهمى حسين

المشرف الفنى

محمد سليم

العـــــدد

الحادى والعشرين

نوفمبر ١٩٧٤

الاشتراكات الاعلانات يتفق عليها مع الادارة ٨٩ « أ » شـــارع قصر العينى تليفـــون ٢٠٨٨٨ — ٢٠٨٨٧ تليغرافيـــا روز اليوسف ج . م . ع

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٤/٤٩٦٠



طبع بمطابع روز اليوسف
الثمن ٣٠ قرشا